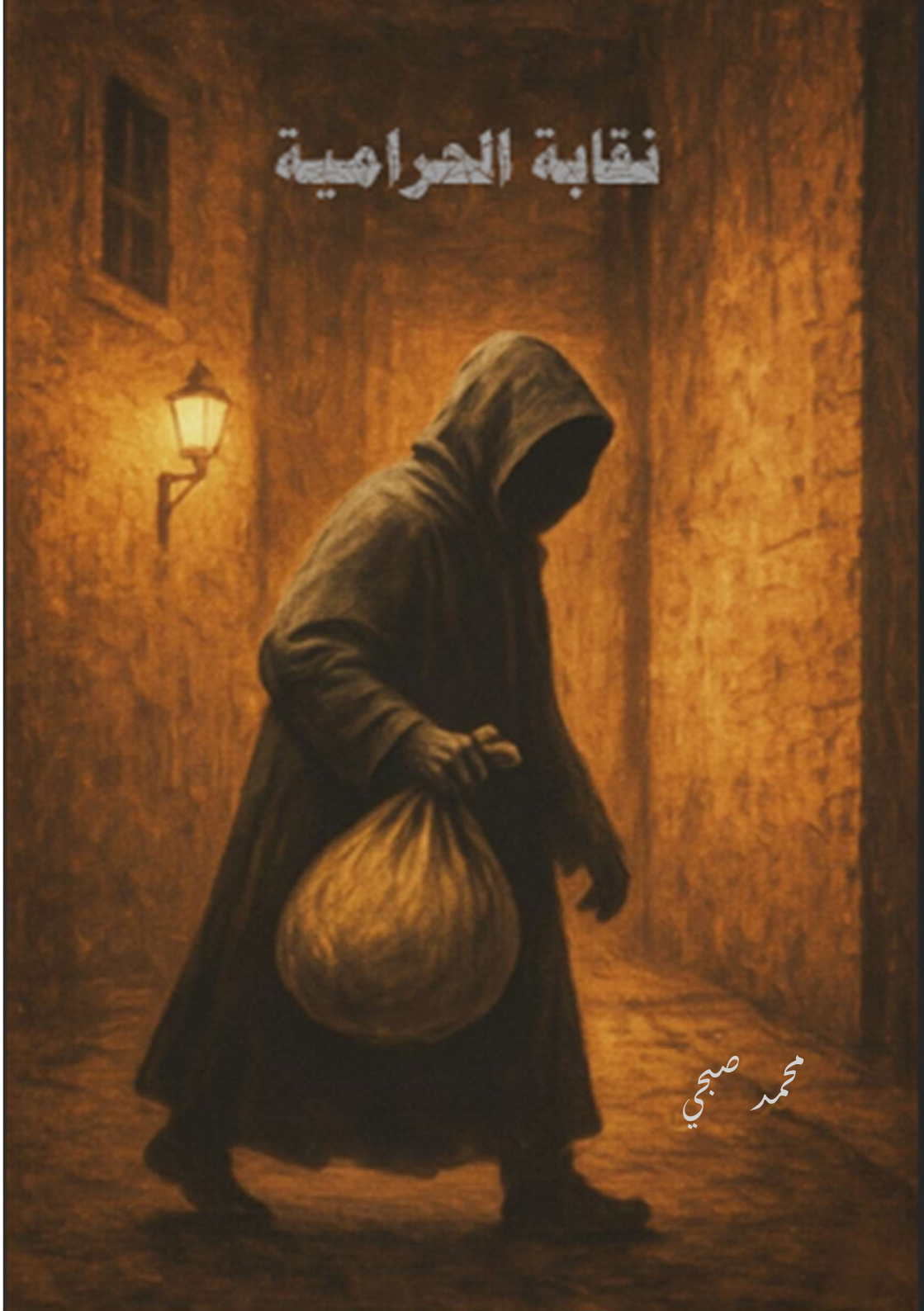
نقابة الحرامية
محمد صبحي

إهداء

إلى كلِّ مَن وُصِف باللصِّ، بينما كان الجوع يسرق منه كرامته.
إلى كلِّ يدٍ ارتجفت لا رغبةً في السرقة، بل خوفًا من جوعٍ يلتهم الأبناء.
إلى كلِّ مَن جرّب مرارة أن يُحاسَب على عرضٍ بينما لم يُعالَج أصلُ الداء.

إلى الفقراء الذين حُشِروا في زوايا النسيان،
إلى العمال الذين لم يملِكوا سوى عَرقهم،
إلى الأمهات اللواتي تقاسمن اللقمة بينهن وبين صغارهن،
إلى الأطفال الذين حُرموا من براءتهم مبكرًا حين رأوا الكبار يتصارعون مع الخبز.

إلى كلِّ مَن اتُّهِم بالفساد، بينما الفساد كان في النظام لا في النفوس،
إلى كلِّ مَن طُرد من دائرة "الشرف" لأنه لم يجد قوت يومه،
إلى كلِّ مَن أدرك أن الجريمة عرض، وأن المرض الحقيقي هو الجوع والظلم.

إلى كلِّ إنسانٍ سقط ضحية سلطة مطلقةٍ لا ترى الناس إلّا كأرقام،
إلى كلِّ مَن صدَّق أن الكرامة تبدأ من رغيف خبز،
إلى كلِّ مَن قاوم بالوعي حين عجز عن المقاومة بالقوة.

هذه الرواية لهم...
كي لا تُختَزَل الحكاية في لصٍّ أو نقابة،
بل تُرى كما هي:
حكاية جوعٍ صار عدلًا حين تَذكَّر الناس أن الكرامة حقّ، وليست مِنّة.

إهداء

إلى من سكنوا بين سطور هذه الحكاية دون أن يقصدوا، فصاروا هم ملامحها الحقيقية، حتى وإن غابوا خلف الأسماء والأحداث.

توأمي ورفيق أيامي سيد صبحي،

الذي فرّقت بيني وبينه الغربة قبل أن تفرقنا الخلافات،
فبقي في القلب كما تبقى اليد الأخرى، حتى وإن لم أمدها.

صديقتي التي صارت زوجتي، سارة،

التي علّمتني أن الحكايات العظيمة تبدأ من صداقة صادقة،
ثم تُروى بحبٍّ أكبر من أي رواية.

ولديَّ نوح وإلياس،

اللذين أدهشاني بأن الكبار يمكن أن يتعلّموا من الصغار،
وأن الحلم لا يكبر بالعمر، بل بالدهشة.

أمي الودودة لطيفة،

التي علّمتني أن الحكايات تُروى بالرحمة قبل الحكمة،
وأن الجذور تظل تحمي الشجرة مهما ابتعدت فروعها.

تقديم

نقابة الحرامية ليست حدوته عن السرقة كما تبدو للوهلة الأولى، بل هي حكاية عن السلطة حين تُشرعن الجريمة، وعن المجتمع حين يجد نفسه مضطرًا للعيش داخل منظومة فاسدة.

في "نقابة الحرامية تتحول القوانين إلى غطاء للجريمة،

كيف لحاكم أن يكون متناقض في قرارته، يطل تارة كمصلح عادل وتارة كديكتاتور صارم،

السؤال الأعمق: هل يمكن أن توجد سلطة مطلقة عادلة؟ أم أن كل إصلاح يُبنى على حكم فردي محكوم عليه بالانهيار؟

كل تشابه بين الاحداث والواقع فهو حقيقي ولا نخشى أن نقول إنه مقصود.

محمد صبحي

الفصل الأول: موت الملك وفوضى المدينة

في بلادٍ كانت يومًا غنية، تفيض أنهارها بالخيرات وتكتسي بساتينها بالثمار، عاش الناس في رخاء نادر. كان زائرها يظن أن هذه الأرض جنة صغيرة: أسواق مليئة بالفواكه، حقول ممتدة حتى الأفق، أصداء الغناء في الأعراس، وضحكات الأطفال تملأ الأزقة، والبيوت مطمئنة إلى الغد.

لكن ما لم يكن يراه الزائر أن الجنة كانت محاطة بأسوار من حديد، وأن الثمار لم تكن تُقطف إلا بإذن الملك.

كان كل شيء في البلاد مُلكًا للحاكم: الماء الذي يجري في النهر، الريح التي تهب على المزارع، وحتى أنفاس الناس. لم يكن الجوع ظاهرًا، لكنه كان حاضرًا مثل شبح يختبئ خلف الأبواب.

دخل الملك، بملابسه الثقيلة المرصعة، كان يجلس فوق العرش كأنه ظلّ إله قديم. ينهب الذهب والحبوب، ويأمر بضرائب جديدة كلما ضاق صدره من الملل. وإذا سُئل: «إلى متى؟»، يرفع صوته قائلًا:

هذا امتحان من السماء. اصبروا، فإن في الصبر ثوابًا.

رجال الدين يصفقون ويؤمّنون:

» –نعم يا مولانا، من يعارضك كافر بالقدر .

وهكذا امتزج الاستبداد بالقداسة، حتى صار الاعتراض جريمة في الأرض والسماء معًا.

ولكي يُحكم قبضته، نصب الملك عشرة ألواح ضخمة في قلب المدينة. حجارة سوداء صُقلت بعناية، ارتفعت كأنها جبال صغيرة وسط الساحة.

وعلي تلك الألواح نُقشت عقوبات قاسية: قطع الأيدي، صلب الأجساد، إعدامات علنية عقوبات لكل من تُسوّل له نفسه أن يخالف أوامر الملك.

لم يكن الغرض حماية المجتمع، بل استعراضًا للسلطان وبثّ الرعب في النفوس. الألواح، المكتوبة بخط غليظ، صارت رمزًا للقمع: العقوبات جعلت الحياة نفسها ساحة ترهيب.

الألواح كانت أشبه بقرآن جديد للملك، يُتلى في الساحات والمدارس والمعابد. الأطفال حُفظوا نصوصها كما يحفظون دعاء النوم، والجنود يقسمون بها قبل المعارك، والكهنة يباركونها ويقولون إنها وحي من الإله.

لكن الناس كانوا يرتجفون منها أكثر مما يرتجفون من السماء. وصارت الألواح لعنة على المدينة: تذكيرًا بأن الحاكم لا يكتفي بطاعتك، بل يريد خوفك أيضًا.

وفي ليلة من ليالي الترف داخل القصر، امتلأت القاعات بالشراب والفواكه. الجواري يرقصن، الحاشية تضحك، العازفون يعزفون ألحانًا صاخبة. وبينما الملك يرفع كأسه الذهبي ويضحك بصوت أجش، سقط فجأة على الأرض. ارتعش جسده كسمكة خرجت من الماء، ثم سكن.

صوت الصراخ يعصف بالمكان، الجنود يركضون في الاتجاهات كلها، والملك يتشبث بأطراف عرشه كمن يتشبث بآخر فكرة. الضوء المرتجف من النيران ينعكس على وجوه الكهنة، وجوه لم تعد تعرف إن كانت تصلّي أم تحسب الخسائر.

وفي أقصى القاعة، عند العمود المكسور، كانت سارة واقفة. لم تبكِ ولم تهتف، فقط كانت تنظر.

نظرة شخصٍ يعرف أن العدالة لم تكن يومًا مسألة قلوب، بل مسألة لحظة تأملٍ لم تحدث.

"لم يكن شريرًا تمامًا"...

فكّرت وهي تراه يتهاوى.

"كان فقط أعمى بما يكفي ليظن أن الحق في صفه".

صوت سقوط التاج فوق الرخام كسر صمتها.

رفعت رأسها كأنها تحاول أن تراه آخر مرة، ثم همست لنفسها:

"كان يمكن أن يُنقذنا لو فكّر، لا لو حكم".

تلتفت ببطء نحو الفوضى المتزايدة خارج القاعة.

تتردد لحظة، ثم تمضي — لا كالهاربة، بل كمن يحمل شهادة على عصرٍ انتهى.

قيل إن السم دسّ له في الشراب.

قيل إن قلبه خانَه من فرط الشراهة.

وقيل إن السماء غضبت عليه.

لكن الحقيقة لم تهم أحدًا. فمع بزوغ الفجر، لم يُرفع الحداد، ولم تُصلَّ الصلوات، ولم يبكِ الناس. بل عمّت الضحكات، وانفجرت المدينة كبركان ظلّ محبوسًا سنوات.

في الأزقة ظهرت أولى علامات الفوضى:

دكان العطار فُتح عنوة، والناس يتسابقون على القمح.

بائع الذهب جُرّ من متجره، وتناثرت الأحجار الكريمة في الشارع كأنها حصى.

حتى المعابد لم تسلم: الكهنة سرقوا القرابين وقالوا إن الإله رضي أن يأخذوا «نصيبهم.«

الناس لا يسرقون بدافع الجوع فقط، بل لأن السرقة صارت إعلانًا عن الحرية. طفل سرق لعبته الأولى، امرأة خطفت ثوبًا من جارتها، شاب نهب عربة كاملة ووزّع الطعام على أصدقائه وهو يضحك.

في كل مكان ارتفعت أصوات:

الملك مات! لا أوامر بعد اليوم«!

كل واحد حر في رزقه

سرقنا خلاص... عشنا خلاص

انتشرت الأخبار كما النار الهشيم وعلم من لم يكن يعلم ولا أحد حزينًا، أو حائرًا، أو قلقًا بشأن السلطة الجديدة؛ ولكن انفجرت السرقات في كل ركن: منازل تُفرغ علنًا، أسواق تُنهب أمام العيون، وأصوات الضحك والافتخار بما سُلب صارت حديث المجالس. تحولت السرقة من جريمة إلى لعبة جماعية. ومع غياب النظام صار كل فرد قانونًا لنفسه.

الفوضى لم تمنح الأمان. والعقوبات القديمة لم تختفِ من الذاكرة، بل خلّفت أثرًا عكسيًا؛ من كان يسرق رغيفًا صار ينهب المخبز كله بالسيف. ومن خشي عقوبة الإعدام صار يقتل ليحمي نفسه من الخوف. هكذا تحولت السرقات البسيطة إلى دماء تسيل في الشوارع. الأسواق أقفلت أبوابها، المحاصيل تلاشت، والناس انشغلوا بالصراع من أجل البقاء.

الدم اختلط بالقمح في الأسواق، والضحك امتزج بالصراخ.

وسط كل هذا الخراب وفي قلب هذه اللوحة المأساوية الساخرة، برز أربعة أصدقاء:

نهى: وقفت عند زاوية السوق، تحمل رغيفًا مسروقًا. عيناها تقولان ما لم تنطق به شفتاها: هذا الخراب ليس حرية، هذا موت بطيء. لم تكن سعيدة بما تفعل، لكنها خافت أن تبقى بلا حماية وسط الطوفان.

نوح: سرق تفاحة حمراء، وأكلها أمام الناس ببطء. لم يستمتع بالفاكهة بقدر ما استمتع بالتمرد نفسه. رفعها كأنها تفاحة آدم، وقال:

أرأيتم؟ لا إله للألواح بعد اليوم.

سيد: جلس على حجر قديم، يكتب في دفتر صغير. يسجل أسماء وأفعالًا ومشاهد. بدا كأنه مؤرخ يكتب شهادة وفاة لمدينة بائسة.

جوليا: أخذت قطعة قماش من السوق ثم توقفت. قلبها يرتجف: «هل ما نفعله صواب؟ أم أننا نغرق مدينتنا في بحر من الخراب؟ عيناها تبحثان عن معنى، عن خيط نور وسط هذا الليل الذي بدا من مطلعه أنه ليل شتاء طويل.

مع غروب الشمس اجتمع الأربعة عند أطلال السوق على صخرة اعتادت استضافهم يلعبون صغار ويختبئون شبابا من درك الملك

المفقود والان تستضيفهم يتفاخرون بما سرقوه وليعلنوا مشاهرهم الحقيقة ومخاوفهم العارية وحزنهم الدفين على مدينتهم.

قال نوح ضاحكًا:

أتعرفون ما أجمل ما في الأمر؟ أننا أخيرًا متساوون... كلنا لصوص!

ردت جوليا بتوتر:

لكن أي مساواة هذه؟ حين يقتل القوي الضعيف لا تقل كلنا متساوون بكن كل كلنا قتله وسارقون أو الاصدق كلنا مجرمون؟

سيد رفع رأسه من دفتره وكأنه مؤرخ:

التاريخ سيذكر هذه اللحظة... كأنها طوفان يمحي صفحة كاملة

التاريخ يا ولاد بيقول أننا امام ميلاد جديد وأهم دور لأي حد فاهم في اللحظة دي هو أنه يكتب كل ما يحدث

أن نسقي الحلم دمع المحبرة ومرارة الاحداث وطول الظلام

أصدقائي من غير فلسفة انا ها كتب كل اللي بيحصل يمكن بعد ايام او شهور او حتى بعد الاف السنوات يأتي من يكتب حدوتنا في رواية تباع الأسواق يتعلم منها الأطفال.

أما نهى فتمتمت:

التاريخ وحده لا يكفي... نحن نحتاج معنى للحاضر ورؤية للمستقبل«.

كان الأصدقاء الأربعة يسرقون كما يسرق الجميع، لكن في عيونهم ظلّ سؤال أكبر: إلى أين يمكن أن تمضي هذه المدينة؟

كان هناك شعور جماعي بأن الحياة لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، وأن شيئًا جديدًا يجب أن يظهر.

كانت المدينة تنتظر بطلًا أو فكرة، شخصًا أو نظامًا ما يمكنه تحويل هذه الفوضى إلى شيء يمكن السيطرة عليه، شيء يعطي الناس الأمان والحقوق، ويعيد التوازن للمجتمع.

المدينة كلها بدت وكأنها تنتظر شيئًا ما:

بعضهم انتظر بطلًا ينقذهم.

وبعضهم انتظر نبيًا جديدًا يبارك فوضاهم.

وبعضهم اكتفى بأن ينهب حتى آخر لقمة.

المدينة تغلي بأصوات الفوضى، بدأ الهمس يتردّد عن ضرورة التنظيم، عن نظامٍ لا يقتل، بل يعيد التوازن للحياة. وحين التقت

عيون الأصدقاء الأربعة وسط السوق، شعروا أن ما سيأتي لن يحدد مستقبل المدينة وحدها، بل مصائرهم أيضًا.

والقدر كان يُخفي الكثير.

ففي مكان آخر من القصر، كان ظلّ رجل جديد يتحرك... رجل سيحمل اسمًا غريبًا: خريس.

ولم يكن أحد يعلم أن هذا الاسم سيتردد طويلًا في كتب التاريخ، لا كملك فقط، بل كمهندس أكبر سخرية عرفتها المدينة وربما التاريخ: مهندس نقابة للحرامية.

الفصل الثاني: الملك خريس

غمرت الفوضى كل شبر من المدينة بعد هلاك الملك الظالم، وفجأة بدا المشهد وكأن السماء قد أرسلت لعنتها على البشر.

الشوارع كانت مليئة بالتائهين الذين لم يعد أحدهم يفرّق بين الصحيح والخطأ، بين القيد والحرية، بين الحق والباطل. كل شيء صار مباحًا، سرقة قتل وغيرهم مما يُتخيل وما لا يطوف يوما في خيال البشر وكأن المدينة نفسها قد فقدت قيمها، وكل من فيها أصبح أسيرًا لرغباته الفطرية، أو لمخاوفه البسيطة عن البقاء، الخلاصة أن القيم جميعها قد تبخرت في الهواء.

كانت الشوارع مسرحًا مفتوحًا.

رجل عجوز يبيع ممتلكاته المسروقة أمام بيته ويضحك قائلًا:

اللي مالوش مال... ينهب الحال«!

طفل يرفع حجرًا أكبر من جسده ليحطم زجاج متجر، بينما أمه تبارك فعلته وتهمس:

متباهية كبر الواد... وبقي راجل ربما تقصد بلوغه الحُلم لا المعني الدارج عن مفهوم الرجولة«!

حتى الكهنة الذين كانوا بالأمس يلعنون الجريمة من فوق المنابر، شوهدوا يخبئون الذهب في أرديتهم ويقولون:
الإله لا يحاسبنا على رزق قد ساقه إلينا.

وفي وسط هذا الجنون، ظهر رجل جديد، العظيم خريس.

لم يكن أحد يعرف من أين أتى، لكن اسمه تسلل إلى الألسنة سريعًا :ولم يكن أحد يعلم لماذا يلازم أسمه على ألسنتهم العظيم نعم هو العظيم خريس.

كان غامضًا في حضوره، ذكاءه فطريا كأنه جاء من عالم آخر. طويل القامة، عيناه سوداوان تلمعان ببريق حاد، وصوته منخفض لكنه نافذ. من يراه يظنه عادلاً رحيمًا، ومن يسمع أوامره يجده ديكتاتور ظالمًا لا يرحم، حين يسمع مستشاريه تظنه الأعدل بين بني حواء، وتراه يبطش دون حساب فتظنه أظلم بنيها.

تناقضاته جعلته لغزًا: كان يمكن وصفه بالديكتاتور العادل أو الظالم الحكيم. لم يكن ملكًا عاديًا؛ بدا وكأنه يعرف أكثر مما ينبغي، كأنما درس تاريخ الطغاة والأنبياء معًا وقرر أن يلعب دورهما في آنٍ واحد.

أحاط نفسه بمجلس من المستشارين، كل واحد منهم كان ينتمي لتيارًا فكريًا مختلفًا، كأنهم مرآة للفوضى التي تحيط بالمدينة:

سارة :شابة تؤمن بأن الإعدام لم يحل شيئًا في عهد الملك السابق، وأن الدولة التي لم تمنح الحق في الحياة لا يحق لها أن تسلبه. كانت ترى أن الحل يكمن في التعليم والاقتصاد والتوجيه الاجتماعي.

إلياس :اقتصادي بارع، يبتسم ببرود وهو يقول: «السرقة ليست إلا نشاطًا اقتصاديًا غير منظم.

أحمد :رجل قانون عجوز، يحمل صوته نبرة حديدية. يرى أن كل مخطئ يجب أن يُعدم فورًا، وأن العدالة لا تعني سوى المقصلة.

ولاء :لسان العامة. كلماتها مترددة وتائهة دائما، لا تبحث إلا عما يرضي الناس، حتى لو لم تفهم لماذا يرضيهم.

في أول اجتماع لهم بملكهم العظيم،

القاعة لا تزال نصف مهدّمة. ضوء النهار يدخل من النوافذ المحطّمة. خريس يقف أمام العرش المكسور، ينظر إليه بتمعّن كأنه يحاول فهم جريمة قديمة.

يدخل الحُرّاس بخطوات مترددة، يتبعهم المستشارين الجدد. بينهم سارة، بثوب رمادي بسيط. لا تتكلم، فقط تراقب.

خريس:(بصوت منخفض)

العرش صمد أكثر مما توقعت.

حتى الأنقاض تعرف معنى البقاء.

سارة:

الأنقاض لا تبقى، سيدي... نحن فقط من نرفض الاعتراف بانتهائها.

يلتفت إليها ببطء، يبتسم كمن اكتشف لعبة جديدة

خريس:

أنتِ إذن التي لم تغادر القصر بعد الانهيار؟

سارة:

كنت أراقب النهاية... أردت أن أفهم كيف يموت نظام دون أن يترك وصيته.

خريس:

يقترب منها بخطوات محسوبة

ربما لأن النظام، مثل البشر، يظن نفسه خالدًا حتى اللحظة الأخيرة.

سارة: بابتسامة باهتة

أو لأنه يحب نفسه أكثر مما يحب من يحكمهم.

صمت لحظة. نظرات متبادلة فيها توتر غير معلن.

خريس:

تحبين أن تتحدثي عن السلطة كأنها رجل أرهقك.

سارة: تنظر له بثبات

وربما أنت تتحدث كمن يريد أن يكون هذا الرجل.

ابتسامة قصيرة تمر بينهما. باقي المستشارين يراقبون بصمت.

المستشار أحمد:

مولاي، الناس في الخارج ينتظرون قراراتك.

خريس:

الناس ينتظرون مخلّصًا... لكني لا أؤمن بالخلاص.

سارة:

ولا أنا لكنّي أؤمن بالاختيار.

خريس: يقترب أكثر

وهل اخترتِ أن تبقي هنا؟

سارة: بهمس

ربما اخترتُ أن أرى إن كنتَ مختلفًا.

نظرة طويلة. يسود صمت ثقيل. المستشارون يتبادلون القلق.

خريس:

اجتمعوا غدًا. أريد نظامًا جديدًا... واحدًا لا ينهار بسهولة.

يلتفت نحو سارة قبل أن يخرج.

خريس: وابقي قريبة.

النظام يحتاج من يذكّره لماذا انكسر العرش.

وفي صباح اليوم التالي كانت قاعة المُلك ثابته شامخة لا تتحرك وكأن لم يفارقها أحد وبحضور العظيم خريس وحراسه ومستشاريه

وقف أحمد وصاح بصوت جهوري:

مولاي، لن يعود الأمن إلا بيدٍ من حديد! السارق تُقطع يده، والقاتل يُعدم. هذا هو القانون الواجب التطبيق، وهذا ما حفظ البلاد قرونًا!

سارة رفعت يدها بهدوء وقالت:

مولاي، الناس سرقوا لأنهم جاعوا. إذا عاقبناهم سنخلق مزيدًا

من الجوعى، مزيدًا من المجرمين. نحن بحاجة إلى مدارس، إلى عمل، لا إلى مشانق جديدة.

ضحك إلياس ساخرًا وهو يصلح ربطة عنقه:

يا مولاي، لا داعي للدراما. ما نراه أمامنا هو ببساطة نشاط اقتصادي سوق غير منظم.

بدل أن نحارب السارقين، علينا أن نُدخلهم في منظمة الدولة الاقتصادية: تراخيص، ضرائب، وربما ضريبة قيمة مضافة«!

سارة مرة أخري رافعة يدها بذات الهدوء المعتاد وقالت:

–مولاي إلياس على حق، الناس وجدت طريقة جديدة للعيش. لو قاتلناهم، سنخسر. يجب أن نُعيد تنظيم هذا النشاط الاقتصادي بدلًا من محاربته.

المستشارة ولاء تنحنحت وقالت مرتبكة:

مولاي... الشعب يريد الأمان. فإذا كان الحل في التنظيم، فهو معها. وإذا كان الحل في العقوبات، فهو معها أيضًا. المهم... أن يرتاح الشعب.

–أيها الملك، مرة أخري الناس تسرق لأنها جاعت. إذا عاقبناهم، سنخلق المزيد من المجرمين، ولن يحل هذا المشكلة.

جلس خريس صامتًا، يستمع. عيناه تتحركان بين وجوه مستشاريه كأنها تزن كل كلمة بميزان خفي، يحلل حججهم.

بدا وكأنه يجمع خيوط اللعبة، يترك كل واحد يكشف عن نفسه، عن مصالحه، وعن فكره، وتيقن خريس مما سمع من حديثهم أن القسوة لن تكون الحل الأنسب لمشكلته وأنها لن تقضي على الفوضى، وأن النظام وحده هو الحل. ولكنه لم يكن متأكدًا كيف يبدأ..

ثم نطق الملك أخيرًا بصوت بارد:

سمعتكم جميعًا. وأري القسوة لن تكون حل. لكن اللين وحده أيضا لا يكفي.

بدا العظيم خريس متناقضا في كل تفاصيله كطبيعته فرغم برود صوته كان عصبيا يقول النظام...أنه النظام هذا هو ما أبحث عنه وهذا دوركم ابحثوا معي عن النظام وأعلنوا للعامة أن المجرم هو النظام

أبلغوهم أن شعبنا برئ وطاهر أما المذنب الرئيسي هو النظام

قولوا لهم أن المستشارين الوزراء جميعكم نعم القادة يعانون لعقم

لا يستطيع أي من المكلفين بإدارة دولتنا يستطيع أن ينجب لنا فكرة تستعيد النظام.

وأعلموا يا سادة أن ليس من بينكم أحدا يحق له أن يعيد كلامه على مسامعي مهما علا شأنه حتى ولو كانت أفضلكم الوزيرة المستشارة سارة صاحبة العقل الرشيد اكثركم خلطا بين عن حقوق الانسان وأمور الحكم والسياسة.

وأشار لحارسه الخاص قائلا ليخرج المنادي ويعلن أن المشكلة في القادة، المشكلة النظام... أبلغوهم أن ملككم العظيم تائه.

ويخرج بعدها من قاعة المداولة لبهو قصره الذي قد ورثه من الملك الظالم دون حتى أن يشير بانتهاء الاجتماع وكان يهمهم مغادرا

المشكلة في النظام ... النظام هو المجرم النظام ...هو المجرم ...النظام هو المجرم

عاد غرفته في قصره الفخم، يرنو من شرفته إلى المدينة التي تغلي كمرجل، تحدث إلى نفسه:
النظام القديم مات مع الملك، لكن أي نظام جديد يمكن أن يولد من هذه الفوضى؟ كيف أسيطر على مدينة تعلّمت أن الحرية اسما آخر للسرقة؟

الفصل الثالث: جولة ميدانية

لم يكتفِ الملك خريس بسماع جدالات مستشاريه، ولا برؤية الفوضى من شرفة قصره. كان يعرف أن الحكم من وراء الجدران يشبه الصلاة في معبد مغلق: صوت بلا حياة، ومواعظ بلا أثر.

لذلك قرر خريس أن ينزل إلى الشارع بنفسه، متنكرًا، كأنه واحد من العامة.

حلق لحيته، ارتدى ثيابًا ممزقة، وغطى رأسه بعباءة رمادية بالية وأخفى خاتمه الملكي في حزام داخلي. نظر إلى صورته في المرآة فابتسم:

–ها أنا، ملكٌ بلا عرش، لصّ محتمل بين اللصوص .

أراد خريس أن يختلط بالناس، أن يرى شعبه بعينيه لا بعين وزراء أصابهم العقم وأصطحب الوزيرة سارة الذي لم يكن يعلم سبب لاهتمامه بها ورغبته في القرب منها.

دخل العظيم خريس السوق الكبير عند الظهيرة، فاستقبله ضجيج لا يوصف. أصوات الباعة تختلط بشتائم الزبائن، ورائحة البهارات تختلط بدخان الشواء ورائحة العرق.

يمرّ الملك خريس متنكّرًا بثيابه البسيطة، ترافقه سارة كأنها مرشدة في مدينة لا تعرف الرحمة.

كان المكان أقرب إلى حلبة مصارعة منه إلى سوق.

أحد الباعة صرخ مازحا:

خضار ببلاش... اسرق كيس وخد الثاني هدية!

ضحك آخر وهو يلوّح بسكين:

مين يجي يسرق مني؟ جرب حظك!

حتى الأطفال صاروا يقلدون الكبار: صبي صغير يمد يده في جيب رجل ضخم، وحين يكتشفه الرجل يبتسم ويقول:

اتمرن أكتر يا ولد... ستصير لصا عظيمًا .

كان العظيم خريس يشبه الناس في السوق في الشكل فقط، ويحاول وسط كل هذا الجنون الاندماج مع شعبه في الأسواق، لكن فشلت كل محاولاته للتشبه بشعبه حتى أدرك أنه ليكون جزءًا من المجتمع يجب أن يشبههم بحق، يجب أن يتحول بحق لسارق

جلس خريس قرب عربة فواكه، يراقب المشهد. حاول أن يمد يده إلى تفاحة، لكن أصابعه ارتجفت. نظر إليه بائع عجوز بعين ماكرة وقال:

واضح إنك جديد في المصلحة. السرقة مش بس مد إيد... السرقة فن.

ابتلع خريس ريقه، وأدرك أن لعب دور السارق أصعب مما ظن.

كلما مد يده إلى بضاعة شعر بارتباك، كأن المارة يعرفون أنه ليس مثلهم.

وبعد عدة محالات اقترب من جمعا من الشباب يسرقون بلا خجل يضحكون معًا بصوت مرتفع، يتحركون بخفة وسط الزحام، يلتقطون ما يعجبهم دون خوف.

ودون استئذان شاركهم خطاهم ومع أول رغيف خبز ينجح في سرقته من عجوز بدا وقتها جزءا من مجتمعه الضائع..

في زاوية أخرى من السوق، لفت نظره أربعة شباب تقرب منهم ملكنا كانوا يضحكون ويتحركون بخفة يلتفون حول صخرة تحتضنهم وكأنها بيتا شُيد. ودون جهد كبير صادقهم رآها فرصه للتعرف على طبيعة شعبه كان يظن أنه لن يراهم مرة أخري، لم يكن يعلم بعد أنهم سيصبحون جزءًا كبيرا من قصته.

نهى: كانت تتحدث بجدية وهي تخبئ رغيفًا في عباءتها:

لو فضلنا كده، هنهلك كلنا. مش دي الحرية اللي كنا بنحلم بيها:

تنظر حولها بقلق

المدينة صارت تشبه المقبرة... الناس تضحك كأنها تبكي.

نوح: على الأقل، ما زالوا يضحكون.

الدموع ما بتأكّلش عيش.

وقفز فوق عربة فارغة وهو يضحك:

ليه التشاؤم؟ ده عصرنا! إحنا اللي بنكتب القوانين دلوقتي.

سيد: يحمل دفترًا صغيرً

ضحكهم مهم. لازم يتسجّل.

جوليا: بنبرة ساخرة

طبعًا... لأنك تظن إن الكتابة تحميهم من الجوع؟

سيد:

مش تحمي، لكن تشهد.

حتى لو الجوع قتلهم، الورق هاتفضل الأوراق حيه.

جوليا:

تقترب منه بخفة، تلمس الدفتر بيدها

واللي جوّا الورق؟

هيفضل يصرخ؟ ولا هيسكت زيّنا؟

صمت قصير، نظرة أطول مما ينبغي. سيد يشيح بوجهه، يخفي ارتباكه.

نهى:

كفاية فلسفة، إحنا مش جايين نكتب، جايين نشوف اللي بيحصل.

نوح: يضحك

نشوف إيه؟ كله باين، النظام بيتشكل في السوق، مش في القصر.

نوح كان يراقب بحذر، يحلل كل حركة، كل تصرف، كأنه يكتب دراسة عن طبيعة البشر في غياب السلطة، عن كيف تصبح الأخلاق نسبية، وكيف يتحول الجوع والفقر إلى مبرر للسرقة.

كان هادئًا، غير متسرع، لكنه متيقظ لكل حدث، لكل ابتسامة، لكل كلمة تُقال بين الحرامية.

جلس على حافة دكان مغلق، يسجل في دفتره الصغير:

اليوم الخامس بعد موت الملك... السوق تحول إلى سيرك دموي. الحرامية يضحكون، والضحايا يضحكون معهم.

أما سيد: فكان الأكثر اندفاعًا، الأكثر شغفًا بالمغامرة، يشعر بالقوة في كل سرقة يقوم بها.

كان يبتسم للمتفرجين الذين يشاهدونه وهو يسرق، وكأنه يتحدى كل القيود الاجتماعية التي تلاشت فجأة.

كان يرى في السرقة لعبة، وساحة اختبار، وربما طريقًا للترفيه عن نفسه وعن أصدقائه، بينما كان قلبه يحترق في الداخل من شعور غامض بالذنب أحيانًا.

جوليا: كانت في حيرة دائمة، تتردد بين الانضمام الكامل للفوضى وبين البحث عن طريق أكثر أخلاقية للبقاء. كانت تراهن على قدرتها على التأقلم، لكنها كانت تعرف أن أي خطأ قد يكلفها الكثير.

مع مرور الوقت، بدأت تشعر بأن هناك شيئًا أكبر من السرقة نفسها، شيئًا يتعلق بالمجتمع كله، بنظام لم يولد بعد، وبحاكم جديد يمكن أن يغير كل شيء.

فبقيت صامتة كثيرا، فقط تراقب الجمع بعينين قَلِقتين. أخيرًا تمتمت:

يمكن نكون بنبني نظام جديد من غير ما نحس... بس نظام إيه؟ ده اللي مش فاهماه.

من بعيد، كان خريس يراقبهم من بين الزحام. سارة تلاحظ نظراته.

سارة: بصوت خافت

تعرفهم؟

خريس: من دون أن يرفع نظره

لا... لكن في عيونهم شيء لم يتعلّمه رجالي بعد.

سارة: الخطر؟

خريس: الأمل.

والأمل عادةً أخطر من السلاح.

تلتفت نحوه، تلمح في عينيه لمعة إعجاب غير مفسّرة، لكن لا تتكلم. يعودان للمراقبة.

جوليا: لسيد

بتكتب إيه دلوقتي؟

سيد ناظرا في عينيها: عنّك.

جوليا: تضحك بخفوت

يبقى اكتب كويس... المرة دي أنا اللي هقرأ.

الضحكة تكسر الجو لحظة واحدة، ثم تعود الفوضى من جديد.

اقترب خريس أكثر، متخفيًا وسط الجموع. كان يسمع كلماتهم وكأنها مرآة لجدالات مستشاريه: نهى تشبه سارة في حكمتها، نوح يذكّره إلياس، سيد يحمل صرامة أحمد لكن بلسان مختلف، جوليا صورة مصغّرة من ولاء المترددة.

ابتسم في سرّه وقال:

حتى بين اللصوص... يظهر مجلس مستشارين آخر.

وفجأة، وقع شجار في وسط السوق. رجلان يتنازعان على حقيبة مسروقة. التف الناس حولهما كأنها مسرحية مجانية. أحدهما صرخ:

دي بتاعتي! أنا اللي سرقتها!

والثاني يرد:

كذاب! أنا اللي خطفتها من الست!

دخلت امرأة عجوز بينهم وهي تصرخ:

الشنطة بتاعتي أنا يا ولاد الكلب !

الجموع انفجرت بالضحك، ثم بدأوا يتقاسمون محتويات الحقيبة بينهم.

خريس وقف مشدوهًا: كان المشهد كوميديًا وسرياليًا، لكنه في الوقت نفسه كشف عمق الفوضى: لا أحد يعرف الحق من الباطل، الكل صار شريكًا في الجريمة، حتى الضحية نفسها تُسلب حقها باسم العدل الجماعي.

مع غروب الشمس، غادر خريس السوق بخطوات بطيئة. لم يعد في حاجة إلى تقارير مستشاريه. لقد رأى الحقيقة بعينيه:

المدينة لم تعد تعرف الخوف من القانون، لكنها لم تتعلم الحرية بعد. كل شيء مباح، لكن لا أحد آمن.

رفع رأسه نحو السماء المظلمة وقال لنفسه:

إن كنت أريد أن أحكم هؤلاء، فلا بد أن أخترع قانونًا جديدًا... قانونًا يولد من الفوضى نفسها .

وبينما كان عائدًا إلى قصره، كانت الفكرة الغريبة التي خطرت بباله بالأمس تترسخ أكثر:

نقابة... للحرامية، ولكن غرابة الفكرة جعل السرقة مهنة، لا فوضى. نضع لها قواعد ورسوم وعقوبات لمن يتهرب من الرسوم كل لص يدفع ضريبة وكل سرقة تُسجَّل.

رجع العظيم خريس لقصره ليس كملك فقط، بل كرمز لقوة العقل والحكمة المخلوطة بالديكتاتورية.

بدأ خريس في التحرك بحذر. في البداية، تختمر في مساحة مظلمة في عقلة فكرة النقابة لكنه لم يكن مستعد لمواجهة نفسه قبل مستشاريه وشعبه بهذه الفكرة الغريبة التي لم يستطع حتى صياغتها في ورقة من شدة غرابتها لكنه تركها تراود أحلامه لا تبارح عقله

خريس كديكتاتور حتى وان أعمل عقله لكن سيفه يتحرك أسرع من لسانه وقلمه رأي أنه يلزمه بعض الوقت للتفكير ولنطبق أفكار وزيرنا أحمد ونضرب بيد من حديد ولنري ما سيحدث.

حاول درك وعسكر خريس تنفيذ التشديد الصارم، الذ فرضه ملكهم فرض القانون لا يفرض بالقوة، أوامر بالإعدامات لمن يسرق. لكن النتيجة كانت عكسية؛ كلما زاد التشديد، زاد العنف، وزادت السرقة أيضا، وكان خريس لا يري في وجه كل من يلتقيه الا وجه وزيرته سارة حين كررت كلماتها حول العنف الذي سيواجه بالعنف وظهرت حالات قتل أرتكبها الحرامية لتجنب الإبلاغ عنهم خشية

عقوبة الإعدام، حتى بدا أن الفوضى تتضاعف بلا حدود. وبعد أن كانت المدينة تواجه خطر السرقة أصبحت تواجه خطر أكبر جرائم القتل وبعد أن كانت الأسواق تمتلئ للصوص أصبحت تمتلئ بجثث القتلى الذي وكان من بين الجثث الطفل الذي تنبئ له العجوز بأنه سيكون لصا عظيما قتله عجوز أخر لأن الطفل شاهده وهو يسرق وخاف العجوز أن يفضحه الطفل ويساق لمقصلة خريس ومستشاره أحمد

الملك، الذي لم يعرف أحد كيف تولى الحكم أمر بحضور مستشاريه ووزراءه عاود الاستماع إليهم.

وهنا بدأ المستشارون يظهرون دورهم الحقيقي: كانوا يعكسون لخريس ما يحدث في الواقع، كانت كلماتهم تفسر للعظيم خريس ما شاهده في جولته الميدانية. ويفسر ما أصاب الدولة بعقوباته الصارمة الأخيرة كانوا يوضحون له أن القوة وحدها لا تكفي، وأن العقوبات الصارمة ليست الحل. ناقشوا، حاوروا، وأظهروا أن المجتمع بحاجة إلى تنظيم مختلف، دولتنا في حاجة إلي نظامًا

يجمع بين القانون والاقتصاد والتعليم والدين، بحيث تتحول الفوضى العارمة إلى سلوك منظم يمكن توجيهه.

وقف الملك العظيم مشيرًا بيده للجميع، فعمّ السكوت المكان، وبملامح غاضبة طرح خريس سؤالًا ناظرًا لمستشارته سارة:

–أين المشكلة؟

وقبل أن ترد أستكمل خريس سؤاله لكن موجها للجميع وقال ما فائدة المستشارين والوزراء إن كان التفكير ليس من بين مهامهم؟

وجاء رد سارة مرتبكًا:

–مولاي، مهمتنا أن نفكر جميعا معًا لنصل لحل يصيغ وينظم أفكار مولاي العظيم خريس.

فيشتاط خريس:

–النظام! التنظيم! النظام! التنظيم! كرهت هذه الكلمات التي لا أسمع غيرها: منكم جميعا، من جوليا، وحتى من سيد، من الجميع!

وينظر المستشارون لبعضهم البعض في ريبة، وتكاد ألسنتهم أن تنطق وحدها: "من جوليا؟ ومن سيد؟" لكن خشيتهم من "الديكتاتور المفضل" استطاعت أن تلجم ألسنتهم، فالخوف قد يكون واقيًا لبعض المخاطر.

بعد جلسات استماع قصيره، ينظر خريس للمستشارين موجهًا كلامه إلى أحمد رجل القانون، ويقول له:

–ماذا لو وضعنا نظامًا يحد من السرقة؟ فما لا يُدرك كله لا يُترك كله.

فيرد بنبرة تشي برفضه:

–مولاي، تقصد وضع العلاقة غير المشروعة في إطار من المشروعية؟

وحينها يبتسم خريس ثم يضحك تدريجا حتى تملأ ضحكات كل ركن في القصر كأنه وجد ضالته في كلام وزيره العنيف ووجه خريس كلامه للوزير العجوز أحمد:

–أحسنت، سيادة الوزير.

لم يعلم أحد سبب ضحكات ملكنا غير المفهومة الدماء في الأسواق وملكنا لا يستطيع أن يكتم فرحه لكن رهبة الحضور من ملكنا جعلتهم يكتمون دهشتهم في رف مهمل بعقولهم بجانب دهشتهم المكتومة سابقة عند ذكر الملك أسماء الأصدقاء جوليا وسيد في بداية المجلس

ليقطع العظيم خريس صمتهم ويهمس في أذن أحمد:

–هل ائتمنتك على سر؟ أنت تمتلك مهارات استثنائية؟

ويعود ليوجه كلامه للمستشارين ويقول بصوت عالٍ:

–العلاقة غير المشروعة في إطار المشروعية!

ويضحك، ثم يقول:

–فلنفضّ المجلس ونعود غدًا لنفكر.

ويضحك بصوت عالٍ وهو يهمّ مفارقًا القاعة:

العلاقة غير المشروعة في إطار المشروعية!

الفصل الرابع: ميلاد نقابة الحرامية

قاعة الحكم التي أُعيد ترميمها على عجل. الستائر الجديدة تغطي الجدران القديمة كأنها تخفي ذنبًا قديماً. يجلس خريس على العرش، تحيط به سارة والمستشارون الأربعة

كان خريس قوي الإرادة، دكتاتوري الطبع، لكنه ليس غبيًا. عرف منذ اللحظة الأولى أن الحل لن يكون بالعقوبات الصارمة وحدها، وأنه يجب أن يُعيد التوازن بطريقة أكثر مرونة وذكاء وكان يعلم أن إعداماته في أيامه الخمس الأولي إجراء لن يكون حل لمشكلات دولته لكنه موقتا حتى يجد حلاً أن لم يُجد نفعا فسيخلق رهبه في نفوس الناس من الملك الجديد وأيضا سيستفيد بمعرفة ردود فعل شعب، خريس العظيم فكر في كل شيء قبل قرارات الإعدام الأولي في كل شيء الا أمر واحد وهو من ستتطاير رؤوسهم تحت سيوف مقصلته هؤلاء المعامل الوحيد الذي لم يتذكره خريس في معادلته.

تأكد ملكنا من بعد تطاير الرؤوس أن الفوضى لم تكن مجرد نقص في القانون، بل خلل في شعور الناس بالأمان الاقتصادي والاجتماعي. فالسرقة لم تكن رغبة في الغش فحسب، بل محاولة للبقاء، وسلوكًا أصبح مقبولًا اجتماعيًا لأن المجتمع فقد معاييره.

وبصوت بارد

لقد تعبنا من اللصوصية العشوائية... فلنجعلها منظمة.

اللصوص لن يختفوا، فلنضمّهم إلينا.

سارة: بهدوء حزين

كنت أظن أن الإصلاح يبدأ من النية... لا من التبرير.

خريس: ينظر إليها طويلًا

وأنا أظن أن النوايا رفاهية في زمن الجوع.

صمت. المستشارون يتبادلون النظرات، الجو مشحون.

سارة: تنظر للنافذة

الجوع لا يبرر أن نسرق، بل أن نأكل معًا.

خريس: يبتسم بخفوت

كلامك جميل يا سارة... لكنه لن يطعم أحدًا.

سارة:

ولا حبك للسلطة سيشبعك.

ينظر إليها فجأة، يقترب خطوة صغيرة، صوته أخف.

خريس: ولماذا يهمك جوعي؟

تتردد، ثم تهمس سارة:

لأنك حين تجوع... تلتهمنا.

صمت طويل. المستشارون ينظرون في الأرض كأنهم لا يسمعون. خريس يشيح بوجهه، يواصل حديثه الرسمي.

خريس: أُعلنها

من اليوم، السرقة صارت مهنة محترمة.

همسات تصفيق خجولة. سارة تترك مقعدها، تتجه ببطء نحو الباب.

خريس:

إلى أين؟

سارة:

إلى الخارج... أريد أن أرى كيف يحتفل الناس بالعار.

تخرج. خريس يراقب ظلها وهي تبتعد. صوته يخفت كأنه يكلم نفسه.

خريس:

هي الوحيدة التي تجعلني أكره ما أنجزه.

وانصرف الجميع وخلد العظيم خريس لنومه، وعقله الواعي والباطن لا يستطيع أن يفرغ من تفكيره في أي شيء سوى الفكرة التي كانت تختمر بذهنه كيف له أن ينشأ وزارة مثلا أو إدارة صغيرة لتنظيم السرقة باعتبارها مهنة معترف بها، وما هو شكل القانون الذي يمكن أن يكون الإطار المشروع الذي ينظم العلاقة غير المشروعة تلك العلاقة السامة بين الدولة وما يمثل خطر عليها،

وقبل أن يغمض عينيه رأي في خيالات ما قبل النوم المشهد الذي شهده في السوق تلك العجوز التي شاهدت سارقين يتنازعون على الحقيبة التي سرقوها منها لتقاطعهم دي الشنطة بتاعتي أنا يا ولاد الكلب فيضحك السارقين وتضحك العجوز ويتم تقسيم محتويات الشنطة بين الثلاث السارقين والعجوز بمنتهي الرضاء،

ولم يستطيع عقل خريس المجهد مقاومة النوم وفي خياله يقول وجدتها وجدتها لكن بصوت لم يسمعه أحد.

المؤكد أن خريس وجد حل له لعلاقة بواقعة العجوز لكننا لا نعلم من وجده عقل خريس الواعي أم عقله الباطن الذي شكله اصدقاءه واللصوص والعجوز

ولم يكد الشفق يشقق عن قلب سواد حتى كان خريس في قاعه حكمه طالبا حضور عاجل لكل الوزراء والمستشارين

جلس الملك خريس على عرشه يتأمله وكأنه يراه للمرة الأولي، لكنه لم يشعر بالراحة. كان القصر يلمع بالذهب، والخدم ينحنون أمامه، والجنود يصطفون بزيهم البراق. ومع ذلك، كان يعرف أن هذا العرش هشّ مثل ورقة في مهب الريح. فالمدينة خارج الجدران لا تزال تغلي.

حضر مجلس مستشاريه لم يكونوا في كامل هيئتهم فاجتماعهم تزامن مع أول ضوء لشمس تدفئ الجو لكنها لم تنر الطريق الا لعظيمهم خريس،

جلسوا جميعا حول ملكهم كأنهم ممثلون في مسرحية قديمة يعاد عرضها كل يوم: سارة الهادئة الواثقة، إلياس المبتسم الساخر، أحمد المتجهم، وولاء المترددة.

كانت تعبيرات وجه الملك خريس هادئة على غير العادة

ولتناقض الملك خريس المعتاد لم يفسر أيا من الحضور ذلك على أي وجه خيرا أو شرا، ولكن الجميع يخفي لهفته لمعرفة سبب هذا الاجتماع العاجل، ما هو الأمر الهام أو الحدث الجلل الذي يمنع ملكنا ويمنعنا من النوم لخمس ساعات متواصلة

ولما طال السكوت المستشار العجوز صاحب الخبرة أحمد بدأ الكلام بصوت صاخب كالمطرق لكن بتعبيرات تشي أنه لا يردد الا مصلحة الوطن:

مولاي، لن تستقيم الأمور إلا بالقوة! يجب أن نعيد إحياء الألواح العشرة. لا رحمة للحرامية أو القتلة. الإعدام هو الحل.

سارة تهز رأسها ببطء معلنة رفضها للحديث وقالت:

مولاي، لقد جُرِّب هذا من قبل. النتيجة كانت آلاف الأيدي المقطوعة، وآلاف الأجساد المصلوبة، ومع ذلك... استمرت السرقة وانتشر القتل. القانون حين يكون مجرد سيف، يخلق خوفًا مؤقتًا لكنه لا يبني مجتمعًا.

ضحك إلياس بخفة، ورفع كأسًا من النبيذ:

مولاي، المسألة أبسط مما نتصور. السرقة ليست خطيئة، بل اقتصاد غير منظم. لماذا نضيّع الوقت في العقوبات؟ لنفرض عليها ضرائب، وربما نكتب عقودًا بين اللص والضحية!

ولاء كعادتها نظرت حولها مرتبكة وقالت بصوت ضعيف: الشعب... يريد الأمان. إن قلت له الإعدام، سيصفق. إن قلت له النقابة، سيصفق أيضًا. المهم أن يسمع شعارًا يهتف به.

ظل خريس صامتًا. أصابعه تدق على مسند العرش، وعيونه نصف مغمضة. كان يفكر: ما قيمة الملك إذا لم يستطع أن يفرض نظامًا جديدًا؟ وما قيمة القوانين إذا لم تُطِعها الجماهير؟

أخيرًا، رفع رأسه وقال بصوت بارد، لكنه مسموع في كل أرجاء القاعة:

هل تملكون غير تلك الكلمات لتنطق بها ألسنتكم، هل تدركون أنكلم لم تدخلوا هذه القاعة يوما إلا ان تقولوا نفس الكلام بعض الاختلافات البسيطة في بعض الألفاظ المستخدمة نفس الخطاب ونفس الفلسفة

لترد ولاء لتقول مولاي زملائي سارة وإلياس يعيدوا نفي الكلام لأنهم من حقهم أن يروجوا لرأيهم لدي مولاهم أما معلنا وكبير مستشاري ملكنا المستشار أحمد فقد طبقنا بالفعل رأيه وكانت عكسية.

ينظر لها أحمد غاضبا وقبل أن ينطق بكلمه واحدة يشير إليه العظيم خريس بإصبعه السبابة أن يسكت،

ويوجه خطابه للمستشارة الوزير ولاء سيدتي الجميلة شكرا على رأيك لكن دعيني أبلغك بقراري قررت أستجابه لاقتراح الوزير أحمد دمج رأي الوزيرين سارة إلياس في فكرة واحدة وتطبيقها.

وبنظرات حادة وبصيغة الأمر موجها كلامه للجميع ناظرا للوزير أحمد

لن نعيد الألواح... سنحطمها. لن نقتل السارق... بل سننظم عمله. من اليوم، السرقة ستصبح مهنة معترفًا بها. سننشئ... نقابة للحرامية.

ساد الصمت لحظات.

في البداية اعتقد الجميع أن هذه مجرد مزحة أو محاولة عبثية، لكن خريس كان يعلم أن النظام البشري يحتاج أداة لتوجيه الطاقة السلبية، وتحويلها من فوضى عارمة إلى سلوك منظم قابل للرقابة والتعديل.

كان السكوت والسكون يعلنان عن الدهشة والترقب والحذر، وأيضًا الهفة لمعرفة ما هو قادم

أحمد صرخ:

هراء! أنت تشرعن الجريمة ولم يكمل حديثه فقد لجم لسانه نظرات خريس له الذي لم يستطيع تفسيرها لكنها لا يمكن تفسيرها الا غضب في أفضل الفروض

إلياس صفق ضاحكًا:

عبقري! هذا ما كنت أقوله دائمًا«.

سارة أغمضت عينيها، كأنها ترى المستقبل المظلم يتجسد أمامها:

مولاي... ستزرع بذور كارثة لا تُمحى«.

أما ولاء فابتسمت مطمئنة:

الشعب سيحبك ويحب ذلك يا مولاي.

لم يلتفت الملك خريس لحديثهم وأعلن لهم تنظيم السرقة بدل محاربتها بالقوة العمياء.

كلّ من يرغب ف السرقة سيصبح مطالبًا بالتسجيل، تحديد مكان عمله، نوع سرقاته، وساعات نشاطه. كل ذلك سيسُجّل في دفاتر ضخمة، كأنها كتب تاريخية تسجل سلوك البشر في فترة الانهيار.

وطلب خريس من قائد حرسه إرسال منادي في الأسواق ليعلن أنه على الجميع الحضور في صباح اليوم السادس من تاريخه إلى الساحة الكبيرة ليشهد تحطيم الألواح العشر التي حملت قواعد عصر الملك المقتول، ووضع القواعد الجديدة.

وعاد ينظر لوجود مستشاريه، التي تكاد عيونهم تسبق ألسنتهم لتستوضح الأمر.

لكن بدا واضحًا أن خريس نفسه لا يملك تجربة كاملة قرر تنفيذها، ولكن ما دار في ذهنه فقط هو كيف يمكن تحويل عبارة "العلاقة غير المشروعة في إطار المشروعية" إلى واقع على الأرض.

لم يكن خريس يفكر في شيء غير أنه إذا فشل القانون في القضاء على ظاهرة غير مشروعة فربما تنظيمها يقيدها ويحدُّ منها كخطوة أولى في الطريق للقضاء عليها.

وما أن أشادت سارة، مستشارة خريس المخلصة، بحكمة ملكها الذي أجل الإعلان عن النقابة لـ ستة أيام حتى يمنح المجتمع الوقت الكافي لفهم ما يدور في هذه القاعة، فقاطعها الملك مسرعًا: وبصوتٍ عالٍ: ما فائدة المستشارين والوزراء ما لم يناقشوا ويطوروا الأفكار؟ ملكك يحتاجكم أن تفكروا معه

ووجه خريس كلامه لمستشاره أحمد:

–أحمد، نقابة للحرامية ستكون منظمة لتسجيل كل لص، تحديد مكان سرقته المفضّل، ونوع المسروقات المسموح بها.

اكتب لوحًا جديدًا ينصب في مبنى النقابة يوضح قواعد التسجيل والجزاءات لكل من يخرق النظام. اجعل أن مخالفة هذه القاعدة ليس لها إلا المقصلة، أما من يسرق بعد قيده وتسجيله في النقابة فلا حرج عليه.

ظهرت علامات السعادة على وجه أحمد بمجرد سماع كلمة الإعدام والمقصلة، لكن سرعان ما انتبه لنصّ الآخر من القاعدة: إذا كان السارق مسجلاً في سجلات النقابة لن يُعاقب.

أحمد محتدمًا، مدافعًا عن القانون، متناسٍ أنه يخاطب الملك العظيم خريس:

–أين القانون؟ ما فائدة القانون إن لم يقضِ على الظواهر الخطيرة؟

خريس محتدمٌ بشدة:

–سيادة الوزير، أنت تخاطب ملكك، وإن كنت تحمل هذا الحب للمقصلة فلا مانع من إرسالِك إليها أسرع مما تظن.

حاول إلياس، المستشار المندهش، تخفيف حدة النقاش ثناءً على رؤية الملك، قائلًا:

–مولاي، سيخوض بنا مغامرة، لن نخسر منها شيء، وإن لم تحقق نتائج نعود للألواح العشر.

العظيم خريس ما زال غاضبًا، مقاطعًا لـ إلياس:

–لا مجال للفشل. خريس لا يفشل، ودوركم أن تساعدوني في ذلك، لا تنفيذ رؤيتكم التي أوصلت ملككم السابق والبلاد إلى ما نحن فيه.

دخل الساقي بالشراب بعد إشارة خريس، وهو يوجه خطابه للمستشارين:

شكرًا أصدقائي على فكرتكم العظيمة، سوف أتبنّاها.

وفي هذه اللحظة يكون خريس قد أعلن لمستشاريه عن ميلاد نقابة الحرامية.

الفصل الخامس: فلسفة القانون الأعدل

بدأ الهدوء يسود القاعة. لم يكن هذا الهدوء نابعًا من طمأنينة أو رضا أو اقتناع المستشارين بقرار الملك، ولا حتى فهمًا لما أراد؛ إنما هدوء يعبر عن انصياع لقرارات الملك وشغف لفهم ما يريد.

قاطع الملك خريس هذا الهدوء طالبًا من المستشار أحمد صياغة أفكاره،

وقال: "لن أجد أفضل منك لصياغة ما وصلنا إليه، ولكن يجب أن تكون علي علِم أن فلسفة القانون يجب أن تكون مختلفة عن فلسفة الألواح العشر.

نحن لا نرغب في التقنين حبًا في السرقة، وإنما تنظيمها للحد منها تمهيدًا للقضاء عليها مع الوقت".

وبابتسامة لطيفة قالت المستشارة سارة: "مولاي، يجب أيضًا أن تبني التشريعات الجديدة على فلسفة: أحنا مش عايزين ننتقم من

المجرم، إحنا عايزين نحاسبه؛ عشان دي مصلحة المجتمع مش بس المجني عليه".

ليرد إلياس: "أيوة، مش مهم من يتحاسب ومين لأ، المهم مصلحة المجتمع".

يخرج خريس عن الموضوع قليلا مقاطع إلياس قائلًا: "هل تعرف لعبة الدومينو؟ يمكن تغير قواعدها طالما ارتضى اللاعبون، وستطبق ذات القواعد المتفق عليها على اللاعبين دون تفرقة.

ويلتف لينظر للجميع راجعا ليوجه حديثه لمستشاره إلياس أهم شرط يجب أن يلازم كل قانون تصدره هذه القاعة هو أن يطبق على الجميع؛ حتى وإن كان قانونًا ظالمًا أو غريبًا طالما أنه طبق على الجميع فلا خطر تلك هي العدالة. إن نجح القانون في تحقيق هدفه نحتفل، وإن لم يحقق، صدقني، العدالة ستضمن أن إلغاءه أو تطبيقه لن يسبب خطرًا كبيرًا على النظام الاجتماعي".

يا سادة، لا خطر على المجتمع وبنيته الأساسية إلا التفرقة بين أبناء الوطن الواحد".

"ولنعد للحديث عن نقابتنا. شكرًا مرة أخرى على فكرتكم العظيمة، ولنشكر جميعا المستشار أحمد على اقتراحه بأن تنظم النقابة كالتالي":

بعد الانتهاء من إعداد سجلات الحرامية، تُطبق قواعد إعدام السارق من غير المسجلين.

ومن يتعرض للسرقة يلجأ للنقابة، التي بدورها تستدعي السارق وتطبق عليه قواعد نظام النقابة.

النظام بسيط وثوري: تأخذ المسروقات من السارق وتقسم كالتالي:

ثلث للمسروق، ثلث للسارق، ثلث للنقابة.

وبدأ المستشارون همهمة ملفتة، فصاح الملك: "لا يوجد متسع في الغرفة لاستقبال ضيف جديد على مجلس الملك ووزرائه ومستشاريه. لا مكان للخوف بيننا؛ فلتتحول همهمتكم إلى خطابٍ عالي، ولن أغضب من أحد".

وبعد سكوت طويل ينطق المستشار إلياس: "فكرة التقسيم عظيمة يا مولاي، بذلك تمتلئ خزائن الدولة؛ فسوف تحصل الحكومة على ثلث المسروقات—ثلث ما يملكه الناس—وبذلك نستطيع إدارة الدولة وتنميتها".

ليرد المستشار أحمد: "هل يقصد الوزير إلياس أن تتحول الدولة إلى سارق؟ وليس أي سارق، بل كبير الحرامية".

وترد المستشارة ولاء: "ذلك أفضل بكثير من خسارة كل شيء".

ويقاطعهم الملك خريس موضحًا: "يجب على الحاكم أو السياسي عمومًا إدراك فلسفة القانون، لا أن يتناوله بمعيار شكلي لفظي قاصر.

سأخبركم كيف توصلت لهذا التقسيم".

"ثلث للمسروق: والأصل أننا أعطيناه كامل المسروقات أحقاقًا للحق في أمواله وقد عادت له، لكن أخذنا منه الثلثين عقابًا له على إهماله الذي شجع السارق على فعلته، فأضرّ بالمجتمع".

"ثلث للسارق: والأصل أننا أخذنا منه كامل المسروقات، ولكن منحناه الثلث مكافأة لالتزامه بالقواعد وإعادة المسروقات طوعًا".

"ثلث للنقابة: لإدارة أعمالها وضمان استمرارية التنظيم، لا كموردٍ لخزائن الدولة".

سكت الجميع، وكان الهدوء هذه المرة مصحوبًا بنظرات تأمل وتفكير عميق.

كان كل وزير يتخيل القانون مع التطبيق، والجميع تحمس للتجربة، باستثناء أحمد الذي بدا عليه عدم الاقتناع، لكنه رغم ذلك كان المكلف بصياغته.

وأشار الملك بيده لانتهاء الاجتماع وفض المجلس، وخرج من القاعة مرّورًا بمستشاريه الواقفين في انحناء.

وبدأ بعدها الوزراء في الخروج من القاعة منشغلين جميعًا بغرابة الفكرة ونتائج تطبيقها.

ويقول لهم أحمد: "لا تظهر عيوب القانون إلا مع التطبيق.

" ولم يكن أحد يعلم بجولة الملك الميدانية"

فقال أحمد: "ليت خريس هذا ينزل هو إلى الأسواق ليعلن قانونه الذي يصر على إلصاقها بنا.

وهي ليست فكرة أحد غير ملك يرى نفسه يعلم ما لا يعلمه صاحب الشعر الأبيض المكلف بصياغة القانون" (متحدثًا عن نفسه).

القصر في الصباح خريس يجلس أمام شرفة تطل على المدينة. سارة واقفة خلفه، تحمل ملفًا من الأوراق. النسيم يدخل كأنه شاهد على الحوار اللي محدش عايز يبدأه.

سارة:

مولاي... تسربت بعض الأخبار والناس في الشوارع يتحدثون. بعضهم يصف الفكرة بالحكمة، وبعضهم يصفها بالجنون.

خريس: من دون أن يلتفت

الجنون أحيانًا طريق الحكمة الوحيد.

سارة: تقترب خطوة

لكن الطريق ده مفروش بالقلوب، مش بالحجارة.

خريس: بصوت خافت

أنا أحاول أن أبني وطنًا... لا أن أدفن أحدًا.

سارة:

تهمس وهي تضع الملف على الطاولة

وأنا أحاول ألا أراك تبتلعك النار التي أشعلتها.

يصمت، يدور ببطء نحوها، يقترب أكثر مما يجب.

خريس:

كل مرة أحاول أن أراك بعين الوزير، تردّيننني إلى قلب الرجل.

سارة:

تتراجع، لكن عينيها لا تهربان منه

والقلب لا يصلح للحكم يا مولاي.

خريس:

ربما... لكنه يعرف متى يرحم.

لحظة توتر، ثم يدخل الوزير أحمد ليفسد اللحظة، يحمل مرسوماً جديداً ويعلن بصوت رسمي أن "النقابة ستُعلن رسميًا غدًا". خريس يومئ له بالانصراف، ثم يلتفت إلى سارة قبل أن تغادر.

خريس:

لو أخطأت... اكتبي عني.

ولو نجحت... انسيني.

سارة:

بنبرة مشتعلة فيها اعتراف مكبوت

لا أستطيع أن أنساك في الحالتين.

تخرج مسرعة، وصوت خطواتها يتردد في الممر الطويل كصدى وعد لم يُقال.

وفي السوق الكبير – الأصدقاء الأربعة يجلسون على رصيف بالقرب من صخرتهم، وأصوات المدينة متشابكة من حولهم.

نوح:

ينظر نحو الناس بحماس طفولي

شايفين؟ البلد بتتغير، التاريخ بيتكتب وإحنا جوّاه.

نهى:

ترد بسخرية ناعمة

ولا بيتكتب علينا؟ ماحدش عارف يا نوح، اللي بيكتب التاريخ دايمًا المنتصر.

نوح:

وانا عايز أكون من المنتصرين، مش من اللي بيتفرجوا.

نهى:

تضحك بخفة

طول عمرك بتحب الكلام الكبير، بس بتخاف من الحقيقة.

نوح: ينظر لها بعمق مفاجئ

وأنا مبخافش إلا لما تكوني مش قدامي.

صمتت نهي، نظرتها تلمع للحظة ثم تغير الموضوع بتوتر واضح.

في نفس المكان، على مسافة قريبة، جوليا وسيد يتجادلان بهمسٍ حاد.

جوليا:

الناس خلاص اتجننت، كل واحد بيفكر يسرق رسمي، وده كله باسم الإصلاح.

سيد: يحاول تهدئتها

مش لازم تشوفي كل حاجة سودا كده. يمكن النقابة فعلاً تنقذنا من الفوضى.

جوليا: بعصبية

تنقذنا؟ ولا تخلينا لصوص قانونيين؟

سيد: يبتسم بسخرية حزينة

لو القانون هو اللي بيحمي اللص... يبقى اللي برا القانون ضحية مش بطل.

تتأمله طويلاً، ثم تهمس بانكسار:

مش عارفة أكرهك ولا أصدّقك.

سيد: ضاحكا

ولا أنا عارف أعيش من غير خناقك.

يمسك يدها فجأة، فيسود صمت قصير متوتر، ثم تسحب يدها وتغادر بسرعة، لكن نظرتها الأخيرة تقول كل ما لم يُقال.

وبالعودة لقصر الملك المهيب خريس يقف عند الشرفة من جديد، يرى المدينة تُضاء بالمشاعل، يتأملها وكأنه يري السوق ويسمع كلمات الأصدقاء الأربعة ويري والناس تهتف باسمه. يضع يده على حافة الحجر ويهمس لنفسه:

خريس:

كل قانون يولد من رغبة... وكل رغبة تنتهي بدمعة.

الفصل السادس: تحطيم الألواح العشرة

في اليوم الموعود، دُعي أهل المدينة إلى الساحة الكبرى. الألواح العشرة وقفت شامخة كما كانت منذ سنوات، سوداء ثقيلة، شاهدة على عهد الرعب.

كان في قلب المدينة خوف غير مفهوم، خوف لا يعرف له الناس اسمًا، ولا يدرون هل هو من الماضي أم مما سيولد بعد قليل.

كانت المدينة كلها في حالة ترقب غير مسبوقة. الشوارع ضاقت بالجموع، حتى الأزقة الصغيرة امتلأت بالوجوه. كأن الناس يعرفون أن هذا اليوم سيُسجَّل في كتب التاريخ، وإن لم يعرفوا بأي عنوان.

من بعيد، ظهر موكب الملك خريس. الطبول تُقرع بإيقاع بطيء، ثقيل، كأنه صوت قلب ضخم يخفق في صدر المدينة كلها.

المزامير تعوي مثل صفارات إنذار. الجنود يضربون الأرض برماحهم في تناغم، والغبار يتصاعد من وقع حوافر الخيل.

في المقدمة، سار حملة الأعلام، ترفرف رايات جديدة كُتب عليها: "نظام... نقابة... تنظيم".

ومن نافذة القصر البعيدة، كانت سارة تتابع المشهد. لم تكن تعرف أتبكي لأن العدل مات، أم لأن خريس صار هو قاتله.

تبادل الناس النظرات. بعضهم قرأ الكلمة كأنها آية مقدسة، وبعضهم تمتم ساخرًا:

الحرامية صار لهم علم رسمي !

حين دخل الموكب الساحة، ارتجّ المكان كله. الألواح العشرة وقفت متشققة، لكنها ما تزال مهيبة. الشمس انعكست على سطحها الأسود فأضاءت كأنها نار جهنمية.

كل فئة من الشعب كان لها مكانها:

الفقراء تزاحموا في الصفوف الأمامية، يحدقون بعينين جائعتين لا تفهم إلا الأمل.

التجار وقفوا إلى الخلف، يحسبون في عقولهم كم سيدفعون وكم سيربحون.

الكهنة تجمعوا على اليمين، يرتدون أرديتهم البيضاء، وجوههم صارمة، لكن عيونهم قلقة.

الجنود اصطفوا على اليسار، ملامحهم جامدة، لكن بعضهم يبتسم خفية.

تقدم خريس بجواده الأبيض حتى صار أمام الألواح مباشرة. ترجل ببطء، رفع يده، فسكتت الطبول. الصمت حلّ فجأة، كأن المدينة كلها حبست أنفاسها.

كانت عينه تبحث في الجموع عن وجهٍ لا ينبغي أن يكون هناك. لحظةً، ظنّ أنه لمحها – سارة – بين الكهنة، لكن الضوء خدعه، أو ربما اشتاق فتخيلها.

قال بصوت عميق:

هذه الألواح، التي قيل لكم إنها من السماء،

في تلك اللحظة، مرّ في ذهنه صوتها القديم حين قالت له: "كل قانون يولد من رحم القلب، لا من مطرقة الملك." لكنه تجاهل الذكرى كما تجاهل كل شيء يؤلمه.

وأستكمل خطابه للشعب لم تزرع فيكم هذه الألواح سوى الرعب. جعلتكم سجناء في حياتكم، حتى نسيتم أنكم بشر. اليوم...لا نحطمها، وإنما نحطم ونكسر معها الوهم«.

هذه الألواح، كانت تُقدَّس دون سبب واليوم لا قداسة إلا للواقع. والواقع يقول إننا كلنا... لصوص.

أشار خريس إلى جنوده. حملوا مطارق ضخمة، ووقفوا صفًا واحدًا. في لحظة واحدة، سقطت المطارق على أول لوح.

دوى الصوت مثل زلزال. ارتجّت الأرض. تشقق الحجر، وتطاير الغبار. صرخ طفل فرحًا، وبكت امرأة عجوز، وضحك شاب بصوت هستيري.

سارة في القصر، وضعت يدها على قلبها كأن الصخرة سقطت في صدرها هي.

ضُرب اللوح الثاني، ضُرب الثالث وحتى العاشر.

ويتقدم المستشار أحمد وحاملو لوح عملاق مخطوط عليه قرار تأسيس النقابة وقانونها الأساسي، وإعلان تحويل حديقة السجن إلى مقر إداري للنقابة، وذلك لاتساعه وتحصينه.

كانت الساحة مع كل لوح يحطم تتحول إلى مسرح جنوني:

الكهنة يصرخون: «حرام! خيانة«!

التجار يتهامسون: «كم سيدفعون للنقابة؟

الفقراء يصفقون: «ماتت القيود!

الجنود يتبادلون نظرات صامتة، كأنهم يشهدون نهاية عهد وبداية آخر وبداخلهم رعب دفين لا يعلم أحد مصدره.

ارتفعت صرخات: بعضها بالفرح، بعضها بالغضب، بعضها بالرعب.

رجل عجوز بكى وهو يقول:

ضاع ديننا!

شاب قفز من الفرح:

مات الطاغية... وماتت قوانينه!

امرأة رفعت طفلها:

احفظ يا بني هذا اليوم... اليوم الذي صار الحرام حلالًا.

قفز كاهن مسنّ إلى وسط الساحة، رفع عصاه وصاح:

أيها الناس! هذه الألواح كتبها الله بيده! من يكسرها يكسر الإيمان كله!

ضحك شاب من بين الحشود ورمى عليه ثمرة فاسدة:

إن كان الله كتبها، فليكتب غيرها !

تدفقت الحجارة، والناس طردوا الكاهن حتى فرّ مذهولًا. مشهد الدين المهزوم كان صادمًا، لكنه مرّ بلا مقاومة تُذكر.

وحين تهاوى آخر لوح إلى التراب، رفع خريس صوته من جديد:

من اليوم، لا قانون إلا نقابة الحرامية.

بأمر الملك أعلن المنادي في الأسواق:

بأمر الملك، تأسست نقابة الحرامية.

كل لصّ له رقم عضوية، تُفرض رسوم سنوية وكل سرقة لها رسم معلوم، وكل سرقة تُسجَّل في الدفاتر من يسرق بلا عضوية... يُحرم من النقابة. ومن يلتزم بالقانون... يعيش آمنًا.

الناس لم يصدقوا في البداية. ظنوا أن الأمر مزحة أو فخ. لكن حين رأوا الإعلان عن مكاتب تُفتح في كل حي، وعمالًا يوزعون استمارات تسجيل، بدأوا يتهافتون.

صوت المنادي تردّد في الساحة:

اشترك الآن! رسوم التسجيل مخفّضة في الأسبوع الأول«!

انفجر السوق بالضحكات، لكن الناس تزاحموا بالفعل حول المكاتب المؤقتة.

رجل بدين سأل المنادي: «وهل يُسمح بالسرقة من الأقارب؟

–رد المنادي: «طبعًا... بشرط توثيقها في النقابة .

هل هناك معاش للحرامية الكبار؟

ضحك المنادي وهو يرد:

كل شيء بالقانون الجديد!

امرأة تسأل: «هل لو سرقوا بيتي... أشتكي عند النقابة؟

–رد المنادي: «نعم، وتُعوّضي حسب اللائحة .

طفل يضحك: «هل في امتحان دخول؟ !

–المنادي ضحك: «لا يا صغيري... يكفي أن تسرق لتثبت جدارتك .

لكن يا عم أنا لصّ صغير... هل أدفع نصف الرسوم؟«

لم يتأخر الكهنة عن مواكبة الحدث. وقف كبيرهم في المعبد، رافعًا يديه إلى السماء:

الحمد للإله الذي جعل السرقة رزقًا مشروعًا... ومن خالف النقابة فقد خالف إرادة السماء .

الجموع هتفت، كأنها لم تكن تحتاج سوى غطاء ديني لتطمئن قلوبها وتعود لننخرط في السرقة في ضوء قواعد النقابة الجديدة.

لم يمر يوما على ولادة الفكرة حتى خرجت للتو إلى العلن، حتى صارت موضوع نقاش الجميع والبعض أقسم أن النقابة ستُغلق في

مهدها، والبعض الآخر بدأ يوزّع استمارات وهمية لعضوية "نقابة الحرامية" بخمسين جنيهًا رسوم تسجيل، وعشرة جنيهات دمغة حكومية فقانون النقابة يجرم السرقة دون تسجيل لكنه لم يتعرض للنصب باسم النقابة.

وكان من بين الجموع أصدقاء الملك خريس الأربعة الذين قد صادفهم وصادقهم في جولته الميدانية السرية نهي ونوح وسيد وجوليا يقف الأربعة في ركن بعيد حول صخرتهم يراقبون المشهد.

سيد قال ضاحكًا:

أخيرًا صار لنا كيان رسمي... أصبحنا لصوص معتمدون!

ضحكته كانت متوترة، وجوليا شعرت أن الضحك وسيلته للبكاء.

نظرت له وهمست بصوت لا يسمعه سواها:

وتمتم وهو يضغط على أسنانه: "والله يا جماعة، خريس ده فتح علينا باب جهنم".

جوليا: لو كنت بتضحك خوفًا، أنا سامعاك.

التفت نحوها، وابتسم ابتسامة خفيفة فيها امتنان صامت.

نهى ردت بقلق:

لكن هل بذلك السرقة لم تعد عيبًا... صارت فضيلة؟ مش شايفين اننا أمام كارثة؟

"دي مش نقابة حرامية... دي مسرحية كوميدية"!

نوح كان يراقبها، لا يسمع كلماتها بقدر ما يسمع رعشة صوتها.

كتب في دفتره، اليوم... أعدمنا القداسة، وخلقنا بيروقراطية الجريمة

شايفين يا ولاد؟ الحكايات هنا بتكبر بسرعة".

ثم رفع رأسه وقال بخفوت:

نوح: كلنا بنحطم ألواحنا، يا نهى، بس محدش بيجمع شظاياها بعدين.

نظرت له طويلًا، ولم ترد. كان كلامه أقرب إلى اعتراف حب مكتوم من جملة فلسفية.

جوليا همست:

كل حجر سقط من الألواح دخل في عقول الناس كقيد جديد.

القيود تغيّرت... لكنها لم تختف.

سيد تمتم، دون أن يلتفت:

سيد: واللي في قلوبنا برضه بيتشقق... بس محدش سامع الصوت.

نظرت له بدهشة، وشعرت أن بينهما صمتًا جديدًا يولد.

ومع غروب الشمس، كان الغبار لا يزال يتصاعد من الساحة. الحطام مبعثر كأشلاء جثة مقدسة. أصوات الناس تتردد بين الهتاف والضحك والسخرية.

عاد خريس إلى قصره. جلس وحيدًا في شرفته، يطل على المدينة التي تهتف باسمه.

كانت الغرفة التي اعتادت سارة أن تقف فيها مطفأة.

اقترب من النافذة، كأن غيابها هو ما أطفأها. مرّ بإصبعه على الزجاج البارد

قال في نفسه:

لقد حطمت الألواح... لكن من يحطم العفن من عقولهم؟

لم يبتسم. كان يعرف أن ما فعله اليوم ليس نصرًا ولا هزيمة، بل خطوة أولى في تجربة لم يعرف التاريخ مثلها.

الفصل السابع: أثر النقابة

بعد أيام قليلة من تحطيم الألواح العشرة، كان خريس شرع في النزول جولته الميدانية التنكرية الثانية. كان هدفه جولة في السوق ومقابلة الأصدقاء الأربعة.

أندهش خريس حين وجد الأسواق أصبحت أكثر انتظامًا؛ الفوضى التي تلت وفاة الملك السابق بدأت تتلاشى، والسرقة الممنهجة قلّت لكنها لم تنتهِ.

المدينة بدت وكأنها وُلدت من جديد. لم تعد الشوارع كما كانت، ولا الناس كما كانوا. صار لكل شيء طعم مختلف: حتى رائحة السوق تغيّرت، كأنها تحمل عبير الحرية والفساد معًا.

في كل حيّ، ارتفعت لافتات ضخمة كُتب عليها بخط صارخ:

"نقابة الحرامية – يدٌ واحدة، قلبٌ واحد، جيبٌ واحد".

قرأ الشعار بصوت خافت كأنه يقرأ مرثية. لم يدرِ لماذا تخيّل وجه سارة وهي تبتسم بسخرية، تقول له: "ها قد صرت نبيّ اللصوص

المكاتب المؤقتة تحوّلت إلى مؤسسات ضخمة.

خريس نظر حوله بدهشة، وشعر بانتشاء غريب. لم يكن فخورًا ولا نادمًا؛ كان فقط مذهولًا من سهولة ترويض الناس... ومن سهولة انكسارة هو أمام نجاحه،

جلس الموظفون خلف طاولات خشبية، يرتدون زيًا رسميًا جديدًا: عباءات سوداء عليها شعار «خنجر متقاطع مع مفتاح». أمامهم طوابير طويلة من اللصوص الجدد، يحمل كل واحد استمارة، ويترقب دوره بفارغ الصبر ليقيد حرامي رسمي.

كان المشهد كأنه نسخة ساخرة من دوائر الحكومة القديمة:

موظف يتثاءب وهو يقول: التالي !

لصّ يمد أوراقه ويقول: «هذه قائمة سرقاتي في الشهر الماضي .

لموظف يختمها ويبتسم: «مبروك... الآن أنت حرامي. لا تنسَ دفع الرسوم.

لم يضحك الناس في الطابور، لكنهم اندفعوا أكثر نحو الشبابيك. لم يعد أحد يخجل من الاعتراف بأنه حرامي؛ بل صار اللص الشريف هو من يعلن انضمامه للنقابة ويدفع الرسوم في موعدها.

في السوق الكبير، تغيرت لغة البيع والشراء. لم يعد البائع ينتظر «يشتري» أو «يقايض»، بل صار ينتظر:

اسرق من سيسرقه ورقم عضويته، لسجّل السرقة في الدفتر !

وبجانب كل متجر، جلس مراقب من النقابة يحمل دفترًا ضخمًا، يسجّل فيه كل عملية سرقة كما لو كانت معاملة تجارية.

رجل سرق رغيفًا من دكان لمسكين أسفل محور يسمي محور الفريق، فأوقفه المراقب وسأله بجدية:

رقم العضوية؟

تعليمات سعادتك يا فندم

عضوية رقم ٣-٧-٢٠١٣

رقم عضوية مميز أنت محظوظ–حسنًا...

سُجّلت العملية. لا تنسَ أن تدفع الضريبة الشهرية«.

لم يكن في المعاملة ما يلفت انتباه أحد. صار الأمر طبيعيًا، بل ممتعًا للبعض، الضحك تردد في السوق على الرقم المميز فقط وما دون ذلك كان معتاد لا يستحق الانتباه.

كانت نهى تراقب المشهد بعينين غاضبتين، تشعر أن الهواء نفسه صار ملوّثًا، بينما نوح بجانبها يسجل في دفتره باندفاع باحث عن "معني في كل ما يحدث."

نهى همست له:

شايف الناس دي؟ بيضحكوا وهم بيبيعوا أرواحهم.

نوح رد:

يمكن الضحك آخر وسيلة بَشرية قبل الجنون.

نظرت إليه طويلاً، ثم قالت بصوت مكسور

مش كنت بحبك لأنك كنت بتغلط بكرامة؟ دلوقتي بتغلط بحساب".

ابتسم بمرارة، ولم يرفع رأسه من الدفتر.

وفي المقهى، جوليا وسيد وسط الزحام.

هي بتتكلم أكثر من المعتاد، لكنه عارف إن الكلام غطا خوفها.

جوليا: كل ده وهم، يا سيد. نظام جديد، فوضى جديدة، وكلنا بندور على طريقة نعيش بيها من غير ما ننهار.

سيد: وأنا بدوّر أعيش من غير ما أكذب على نفسي.

جوليا: (تضحك) نفسك؟ يا راجل، إحنا حتى السرقة بقت لنا فيها لائحة!

وتقترب منه بهدوء، تهمس

“هتكتب ده في دفترك؟ ولا هتكتب عنّا لما نختفي؟”

ينظر لها، العيون تلتقي، كأن الكلام بينهما اعتراف لم يجرؤ أحد عليه.

المدينة انقسمت إلى طبقات جديدة:

اللصوص الكبار: يملكون مكاتب خاصة، يدفعون رسومًا عالية، لكنهم محميون من أي ملاحقة. يلبسون خواتم النقابة كشارة فخر.

اللصوص الصغار: يتباهون ببطاقة عضوية النقابة كأنها شهادات ميلاد جديدة.

غير الأعضاء: صاروا منبوذين، يُنظر إليهم كغرباء أو ضعفاء.

بعضهم لم يسرق أبدًا، وبعضهم رفض مبدأ النقابة، لكن النتيجة واحدة: عُزلة، واتهام ووصم اجتماعي سيقف خبراء علم النفس والاجتماع أمامه طويلا.

في المقاهي، صار الناس يتبادلون التباهي بعضوياتهم:

أنا سرقت عشرة دكاكين هذا الشهر !

هاه... وأنا نهبت قافلة كاملة، والنقابة منحتني وسامًا .

أنا مبتدئ... سرقت فقط دجاجتين فقط .

ويضحك الجميع، ويشربوا نخب نجاحاتهم.

ورجال الدين لا يخزلونا أبدا ففي كل صفحة من صفحات التاريخ في أي مكان على كوكبنا المحتضر تجد لهم ذات العلامة

لم يتأخر أحدا منهم عن التكيف مع النظام الجديد. وفي خطبة الجمعة، وقف الكاهن الأكبر وقال بصوت عميق:

أيها الناس، النقابة رحمة من السماء. ألم يعلمنا ديننا الحنيف: الفرق بين اليد التي تعطي الخير واليد التي تأخذ؟

والآن صارت اليد التي تأخذ هي من تدفع للنقابة، فهي يدٌ مباركة!

ضحك البعض ساخرين، لكن في مجتمعهم المتدين بطبعه حجزوا سخريتهم خلف ابتسامة باهته يمكن أن تشرح كل شيء داخل صدورهم.

لكن أغلب الناس صفقوا بارتياح لكاهنهم. فطالما وجدوا غطاءً دينيًا، شعروا أن كل شيء على ما يرام.

حتى العسكر والدرك تأثروا. صاروا يتباهوا بعضويتهم، ويضع عسكرهم بطاقة النقابة بجوار سيوفهم.

صباحا يحمي الحدود ويحمي النظام وفي المساء يسرق من التجار، ثم يُعيد جزءًا بسيطًا مما سرق كـ إجراء قانوني.

والواقع أن ذلك كان أحد أهم مكاسب الحقيقة من القانون الجديدة

صديقي القارئ يجب أن تُدرك أن قبل تأسيس نقابة الحرامية كان العسكر والدرك يسرقون دون أن يستطيع أحد مجرد التفكير في توجيه الاتهام لهم أما بعد النقابة فمن باب أضعف الايمان واقل

المكاسب ما يرده العسكر والدرج كان في حكم الديون المعدومة والان استردها المجتمع.

أحد الجنود يوما قال لزميله:

يا رجل، أخيرًا صرنا نسرق بزي رسمي مرتين: مرة باسم الوطنية، ومرة باسم النقابة !

ضحك زميله حتى وقع على الأرض وما لبث أن أستقام عوده حتى هرول مسرعا.

كان يهرول وهو يقول أنا مش عايز اتحاكم عسكري.

وكانت صدمة خريس لا توصف حين رأى الأصدقاء الأربعة

نُهى وجوليا؛ كانتا المرشدتين الرئيسيتين للشباب في الأسواق، تعلّمانهم كيفية التفاعل مع النظام الجديد، وأهمية التسجيل في

النقابة، ليس لمكسب شخصي فحسب، بل للحفاظ على المجتمع من الانهيار.

تجمّد للحظة؛ بين الإعجاب بذكائهما والخوف عليهما من أن يتحوّلا إلى رمزين لما كان يحاربه

أما سيد، عيناه باردتان، لكن بين الجمل القصيرة اللي بيقولها وجع واضح، كأنه خسر شيئًا لا يعرف اسمه

سيد كان الأكثر مهارة في السرقة، فقد خضع لاختبار حقيقي: كان عليه أن يختار بين المكسب الشخصي أو التكيف مع النظام الجديد.

نوح سجّل كل خطواته وكل قراراته وكأنه مؤرخ. وعندما سأله خريس ما فائدة التسجيل؟ لم يكن يعرف من سيقرأ ما يكتب، لكنه رد على الملك المتنكر:

"يا رجل التوثيق مهم ومفيد، ربما لا نرى أنا وأنت أهميته الان وربما لن أو نشهد من سيقرأ ذلك، لكني كلي إيمان أنه لو كلنا وثّقنا الحقائق، مش ممكن أبدًا تتزوّر".

رد الملك المتنكر:

"ومين ممكن يصدق كلام حرامي... بشهادة من نقابة الحرامية؟"

فضحك نوح:

"اللي ها يبقى حرامي زينا، حتى لو في بلده ما فيهاش نقابة للحرامية".

جلس الأربعة ومهم الملك المتنكر في ركن هادئ من السوق، يتأملون المشهد.

قال نوح باندفاع وعيناه ترقبان كل صغيرة وكبيرة في السوق:

أليست هذه أعظم ثورة في التاريخ؟ حولنا الجريمة إلى مؤسسة، والسرقة إلى شرف!

نهى رمقته بنظرة لم يعرف معناها، ربما كانت نظرة حبٍّ يحتضر

جوليا ردت بقلق:

لكننا لم نحل شيئًا. كل ما فعلناه أننا وضعنا قيدًا جديدًا على الحرية، قيدًا ببطاقات ورسوم.

هو في قبل كده، ولا هايجي في المستقبل، بلد غيرنا ها يحكمها مجنون يعمل نقابة للحرامية؟ إحنا في آخر الزمان والله"!

وتمتمت نهى:

كل هذا سيقود إلى انفجار. الحرية ليست جريمة مرخصة... الحرية شيء آخر.

سيد كتب في دفتره:

اليوم السابع بعد النقابة: النظام الجديد يسير كآلة بيروقراطية ضخمة، تسجّل وتشّرع الجريمة بدلًا من أن تمنعها .

رفعت جوليا رأسها نحوه وقالت بخفوت

الآلة دي هتسحقنا كلنا".

رد بابتسامة صغيرة

"بس هتسيب آثارنا مطبوعة على التروس".

لم تفهم إن كانت جملة فلسفية ولا وعد حبّ غامض.

نُهى:

"انتوا عارفين إن البلد كلها تقريبًا سجلت في النقابة؟ مفيش غير المجنون خريس ومحاسيبه".

سيد، غارقًا في ضحكاته:

"أولًا، خريس يسجل ليه؟ وهو ها ياخد تلت مسروقات البلد كلها بنقابته دي! أما محاسيبه... فهم أعضاء نقابة يا مواكيس"!

كان كلام سيد له وقع الصدمة على خريس، الذي حاول إخفاءه خلف ابتسامة مصطنعة.

لم يكن ملكنا يتوقع أن يسجل وزراؤه ومستشاروه في نقابة الحرامية.

وحين وجد أنه لن يستطيع إخفاء صدمته أكثر من ذلك، خاف أن يُفتضح أمره ويعلم أصدقاءه أنهم يتحدثون مع الملك الذي لا ينطقون اسمه إلا مقترنًا بـ "المجنون". فاعتذر منهم وتركهم مسرعًا وعاد إلى قصره.

كان المشهد كله ساخرًا إلى درجة البكاء. المدينة التي كانت تتعبد الألواح العشر بالأمس، صارت تعبد البطاقات اليوم.

الناس الذين كانوا يخشون السيف، صاروا يخشون ختم الموظف.

الدين الذي كان يحرّم السرقة، صار يباركها إذا دُفعت رسومها.

كأن القداسة لم تختفِ، بل غيّرت ملابسها.

عند الغروب، ارتفعت أضواء القناديل في الساحة. موسيقى النقابة تعزف لحنًا جديدًا: نشيد رسمي يقول:

بالسرقة نحيا، بالرسوم نبقى، بالنقابة نعلو .

الناس رددوا وراءها بمرح، كأنهم في مهرجان وطني.

وفي قصره، جلس خريس في شرفته يسترجع ويتأمل كل ما شاهده في جولته المؤلمة. ابتسم ابتسامة غامضة.

لم يكن يعرف بعد أن كان مهمته سياسية في حكم دولة أم مخرج لمسرحية تحمل طابع الكوميديا السوداء، لكن كان واضحًا أنه أمسك بخيوط قلوب الناس... على الأقل مؤقتًا.

لكنه كان يسمع صوتًا آخر، أقرب من كل الضجيج — صوت سارة، كأنه همس يأتي من داخله.

أنت لم تحررهم يا خريس، أنت فقط علمتهم كيف يحبّون القيد".

أغلق عينيه وقال بصوت خافت

"والقيد في عينيك... كان أجمل ما فيك".

الفصل الثامن: لصوص لكن وزراء

دخل خريس القاعة بعد أن تخلّى عن ملابسه التنكرية، والأنوار انعكست على وجهه فظهرت نظراته الحادة جعلت المستشارين يتبادلون نظرات حذرة.

كانت سارة في مقعدها المعتاد، تنظر إليه كأنها تراه لأول مرة بعد غياب طويل. الضوء القاسي جعل ملامحه أقرب إلى القسوة منها إلى الملكية.

قام الجميع واقفين، ثم انحنوا في تحية تقليدية، غير أن صوته القاطع سبقهم:

"كفانا تملق، ولنناقش ما اجتمعنا لأجله: ما هو تأثير النقابة ومدى التزام المواطنين بالقانون الجديد؟"

ساد الصمت لحظة، كان صمتًا ثقيلًا، كأن القاعة نفسها انكمشت في انتظار العاصفة. همّ أحد المستشارين بالكلام،

لكن خريس صدره لم يتسع لاحتمال غضبه أكثر من ذلك وقاطعه بصوتٍ جهوري متوتر:

"أخبروني يا سادة، ما هو المبرر أن يسجل مستشارو ووزراء الملك خريس في نقابة الحرامية؟"!

ارتجفت سارة في مقعدها. لم يكن الصوت يهاجمهم، بل كأنه يهاجمها وحدها.

كانت تعرف أن السؤال ليس إداريًا، بل اعتراف غير مباشر بخيانته هو لنفسه.

ارتجفت المقاعد، وارتبكت الأعين، كل واحد يبحث في الأرض عن كلمات يعلق بها المشنقة في رقبة الآخر.

وسط توتر الحاضرين وجه خريس سهام نظراته إلى المستشار أحمد، فقال: "سيادة المستشار، قلت سابقًا: يجب أن نُعيد الأمن بيدٍ من حديد! السارق يجب أن تُقطع يده، والقاتل يجب أن يُعدم".

وأخيرًا، تجرأ المستشار أحمد وقال:

"مولاي، سبق وقلت ذلك لكن"...

لم يكمل كلماته المتلعثمة، فاندفع خريس مقاطعا يسأله:

"لكن ماذا؟! أي يدٍ من حديد هذه إن كان الوزراء أنفسهم يختبئون خلف نقابة الحرامية؟"

تلعثم أحمد أكثر وأكثر، وبدا عليه يبحث عن حروف تسوقه لكلمة يواجه بها غضب مولاه ويفسر تناقضه مع نفسه.

وهداه لسانه أن ينطق: "مولاي، المستشارون بالفعل سجّلوا أنفسهم كحرامية من باب الحذر، لكن هذا لا يعني أنهم بالفعل سوف يسرقون".

ثم تدخلت سارة بصوت أنثوي رزين، لكنه ممتزج بارتعاشه خوف: "مولاي، الأمر ليس كما تتخيل. نحن لسنا في حاجة إلى السرقة، لكننا نخشى المستقبل. وتلك طبيعة البشر أن يخشوا القادم المجهول أكثر مما يخشون الحاضر ونحن وزراء لكننا بشر".

سارة كانت تتابع الحوار بنَفَس متقطع. في داخلها رغبة أن تهدّئه، وفي الوقت نفسه رغبة أن تصرخ فيه. شعرت أن كل كلمة منه طعنة لها شخصيًا.

نظر إليها العظيم خريس طويلاً، نبرته تغيّرت للحظة، كأنه سمع ما لم يُقال: "نحن بشر... ولسنا مثلك."

ضحك خريس ضحكة قصيرة مريرة:

وتمتم بصوت هادئ كأنه يغني "لصوص لكن وزراء"

وارتفع صوته تدريجيا كأنه ممثل علي خشبه مسرح

"بلدنا العظيم... سبعة آلاف سنة حضارة، ويضيّعها حفنة من الوزراء والمستشارين الذين يختبئون خلف لقب لصوص. أين هي العظمة؟"!

حين صرخ، نظرت سارة إلى الأرض. لم تكن تخاف صوته، بل وجعه. عرفت أنه لم يعد يصرخ على الوزراء، بل على نفسه

التفت خريس إلى الساقي، وصوته مزيج من السخرية والمرارة: "أيها الساقي، اسقني شرابًا، وإن كنت عضوًا في نقابة الحرامية اسرق لك كأسًا، فمن المؤكد أنك فقير. أما هؤلاء... فهم يسرقون باسم الخوف من الغد. فلا تسقيهم فليشربوا من خزائنهم الحرام"

انكمش الساقي وهو يقدم الشراب، بينما نظر خريس إلى الحضور:

قائلا: يا سادة، الساقي الفقير لا يمكن وصفه بالحرامي، "أما أنتم لستم فقراء، بل لصوص.

كل الوزراء لصوص، كل المستشارين... كلكم لصوص".

أثناء صراخه، رفعت سارة رأسها نحوه. كانت الدموع على وشك أن تنفلت، لكنها تماسكت. كانت تعرف أن لحظة سقوطه بدأت حين بدأ يتكلم عنها من خلالهم.

جلس على كرسيه، وأخذ رشفة طويلة، وصدى كلمات سارة مازال يطن في أذنه:

"لسنا في حاجة للسرقة، لكننا نخشى المستقبل".

همس لنفسه وهو يبتسم بمرارة: "وأنا كنت بخاف منك أكتر من المستقبل

أدرك حينها خريس أن العقاب وحده لن يردع، وتنظيم السرقة أيضًا وسيلة، لم يكن هو الغاية

أدرك أن الشعب لا يحتاج إلى السيف بقدر ما يحتاج إلى الأمان الاقتصادي.

ومع كل ذلك، كان يشعر أن سارة لا تزال تنظر إليه بنفس العين التي كانت تُحبه بها، لكن خلفها حائط من الخيبة.

بينما كان النقاش محتدمًا في القصر، كانت الأصداء تصل إلى الشوارع والأسواق. في سوق الخبازين، كان الناس يتجادلون حول "نقابة الحرامية" كأنها حكاية شعبية جديدة.

كان الأصدقاء الأربعة يسمعون ما يجري من الإشاعات، وكل واحد منهم يرى صورته في المرايا المشققة للمجتمع الجديد.

بائع الخبز العجوز لزبون:
"يا بني، إذا كان الوزراء نفسهم سجلوا في النقابة، فماذا يبقى لنا نحن الفقراء؟ هل نسرق برخصة مثلهم؟ أم ندفع اشتراكًا كي نعيش بسلام؟"

ضحكت امرأة شابة، تحمل طفلًا على ذراعها:
"على الأقل لو سرقنا سنُعامل كأعضاء شرعيين، لا كخارجين عن القانون".

وبينما الناس يسخرون في العلن، كان الخوف يزحف في القلوب: إن كان الكبار قد دخلوا النقابة، فمن ذا الذي سيحمي الصغار؟

في زاوية المقهى القريب، جلست نهى تستمع إلى الحوار دون أن تشارك، كانت تشعر أن المدينة كلها تتكلم باسمها — مدينة خائفة تضحك كي لا تبكي. بجانبها، نوح صامت، يدوّن. وعيناه بين الدفتر ووجهها.

حتى الساقي الذي كان حاضرًا في القاعة، حين عاد إلى بيته في الليل، روى لزوجته ما جرى. جلس منهكًا على حصير بالٍ، وقال لها:

"تخيلي يا أم هارون، الملك بنفسه قال إني فقير ولست حرامي. لكن الوزراء؟ الوزراء لصوص. سمعتها بأذني".

ضحكت زوجته، ثم أطرقت في حزن:

"يا رجل، إذا كان اللصوص في القصور، فماذا يتركوا لأمثالنا؟"

وهكذا، لم يكن درس خريس عن "الأمان الاقتصادي" مجرد فكرة في ذهنه، بل كان حقيقة تلمسها الناس في ليلهم ونهارهم. لقد صار الفقر أقوى محرك للسرقة، وصارت النقابة مرآة تكشف عجز النظام كله.

الفصل التاسع: في ظلال النقابة

لم يمضِ وقت طويل حتى صار واضحًا أن النقابة قد غيرت كل شيء حتى روح المدينة نفسها.

اللغة التي يتحدث بها الناس تغيّرت، الأمثال الشعبية تحوّرت، المدارس أُعيد تنظيمها، وحتى الأغاني في الأعراس لم تعد كما كانت.

صارت اللغة نفسها مسروقة.

لم يعد الرجل يقول: «اليوم كسبت. بل يقول: «اليوم سرقت حلال.

لم تعد المرأة تقول لزوجها: «أحضر قوت العيال، بل تقول:

سجّل سرقتك في الدفتر، وإلا جاع أولادك.

الأطفال في الشوارع يلعبون لعبة جديدة: واحد يمثل موظف النقابة، والباقون لصوص يقدمون أوراقهم.

حتى الأمثال الشعبية تلك المأثورات التي يتناقلها الناس عبر الأجيال تحولت إلى نسخ ساخرة:

من سرق بيضة... استحق عضوية .

اسرق ولا تبالي... النقابة تغطي .

اللص الشريف... خير من الصادق الغريب .

صارت هذه الجمل تتردد في المقاهي، في البيوت، وفي الأسواق، حتى صدّقها الناس كما صدّقوا الألواح قديمًا.

ضحك الكبار وهم يشاهدون الأطفال، الذين حولوا لعبه عسكر وحرامية لنقابة وحرامية ضحكوا وفي أعماقهم يشعرون أن شيئًا ما انكسر في معنى الطفولة.

حتى الأسرة نواة المجتمع لم تسلم من التغيير.

الأب يتفاخر أمام أبنائه بعدد السرقات المسجلة باسمه.

الأم تحث زوجها على الالتزام بدفع الرسوم الشهرية لتأمين مستقبل البيت.

الأبناء يحلمون بأن يصبحوا لصوصًا كبارًا مثل "نواب النقابة" أو "أمراء السرقة أو حتى وزراء خريس."

أحد الأطفال كتب في كراسته:

حين أكبر... أريد أن أكون كبير اللصوص نقيب الحرامية .

صفق المعلم، وعلّق:

طموح عظيم، وطني مخلص !

في المدارس، تغيرت المناهج. أضيفت مادة جديدة اسمها:

أخلاقيات اللص الصالح .

الدرس الأول في منهجها كان يقول:

لا تسرق خارج النقابة، ولا تخفي سرقة عن دفاترك، ولا تخن النقابة... فهي أمك وأبوك .

الأطفال ردّدوا هذه العبارات كما كانوا يرددون آيات الألواح القديمة.

ولم تسلم الفنون من طوفان التغيرات الاجتماعية

الفنانون والشعراء وجدوا أنفسهم أمام واقع جديد.

شاعر يكتب قصيدة بعنوان: «بطاقة عضويتي أجمل من هويتي.«

رسام رسم لوحة ضخمة فيها موظف نقابة يجلس كإله، والناس يقدمون له ما سرقوه كقرابين.

موسيقي ألّف نشيدًا جديدًا:

من سرق عاش، ومن دفع دام، ومن خان فُصل .

صار الفن كله دعاية للنقابة، حتى لو بدا ساخرًا في أعماقه.

وإن كنتم تعتقدون أن مشهد الزوجين الممزوج أثر محبرة المأذون بالحبر في الفسفوري أمام كاميرات الانتخابات المعلبة ...فلدينا الاغرب

في حيّ بائس في دوله الزعيم الملهم خريس، جرى أول زفاف رسمي تحت رعاية النقابة. العريس والعروس تبادلا بطاقتي عضويتهما بدلًا من الخواتم. المنادي أعلن أمام الحضور:

–بموجب القانون الجديد، صار الزواج اتحادًا بين لصّين مسجلين، يلتزمان بدفع رسوم مشتركة، وتقاسم السرقات فيما بينهما .

ضحك الحضور، وصفقوا بحرارة. حتى أغنية الزفاف تغيّرت:

فطل علينا نقيب الموسيقيين وغني التيمة المعروفة اللي

تارا وتيرا ترارارااللي دا تيرارا وفصل بين الكوبلين وقال تن مص ..واللي لا للي لاللي

يا عريس النقابة، يا عروسة البطاقة... سرقتك حلال، وعيشك في أمان .

لكن لم يكن كل شيء مرحًا كنقيب الموسيقيين ف في أحد الأحياء، جلست أرملة تُدعى "أم هاشم" تبكي. زوجها كان لصًا مسجلاً، لكنه قُتل في مشاجرة على غنيمة. حين ذهبت إلى مكتب النقابة تطلب معاشًا، قال لها الموظف ببرود:

زوجك لم يدفع رسوم الشهر الماضي... لذلك يُعتبر متخلفًا عن القانون. لا يحق لكِ معاش.

خرجت تبكي، وهي تلعن النقابة، لكن أحد المارة قال لها:

أسكتي الحيطان لها ودان! لا تكوني ضد النظام.

وهكذا، حتى المأساة صار لها طابع قمعي وبيروقراطي.

من بعيد، راقب الأصدقاء الأربعة المشهد. حاولوا مساعدة الأرملة، لكن البيروقراطية كانت أمتن من الرحمة.

حاولوا مساعدتها وعندما فشلوا جلس الأربعة في مقهى شعبي، يشاهدون

الأطفال يلعبون لعبة موظف وخبر وحرامي

قال نوح مبتسمًا بسخرية متوترة:

ألا ترون؟ النقابة صارت دينًا جديدًا، له طقوس وأغانٍ وأمثال.

ردت نهى بنبرة يختلط فيها الغضب بالحنين:

لكن الدين على الأقل كان يعدنا بمكافئة السماء... هذه النقابة تعدنا فقط بسرقة منظمة .

ثم نظرت إليه طويلًا، وأضافت بصوت خافت:

«كنت أظنك آخر من يبرّر للظلم، لكن يبدو أني كنت أغبى من أن أراك بوضوح.

سكت نوح، لم يجرؤ على الرد، فقط أخرج قلمه وكتب في دفتره المرتبك:

اليوم... خسرت نهى، وربحت جملة جديدة عن سقوط الأخلاق.

سيد كان يراقبهما بصمت، ثم التفت إلى جوليا التي جلست شاردة تنظر إلى الأرملة الباكية:

تحبي نساعدها تاني؟

قالت وهي تمسح دمعة خفيفة:

مش هتنفع... بس نقدر ندفن اللي اتبقى من كرامتها بكرامة.

سكت لحظة، ثم مدّ يده بحذر ليمسك يدها، ولم تسحبها.

كانت تلك اللمسة الأولى التي لم يقرّها قانون، ولم يوقّع أو يصدق عليها موظف نقابة.

نوح التفت نحوهما مبتسمًا بمرارة:

«حتى الحب بقي جريمة خارج اللائحة.

ضحك سيد وقال:

حسن... ع الأقل مش لازم ندفع رسوم شهرية.

ضحكت جوليا بخفوت، ثم نظرت إلى نهى التي لم تضحك. كان في عينيها شيء يشبه الغيرة، لكنه كان غيرة من زمن أبسط لا من امرأة أخرى.

سيد لخص كل ما دار بعبارة وكتب في دفتره:

اليوم: الأخلاق الاجتماعية تنهار، واللغة تتحول إلى مرآة ساخرة للفساد .

جوليا همست:

حين يتعلم الطفل أن السرقة فضيلة، فلن يعرف يومًا معنى الشرف .

في الواقع لم يحدث خريس تغيير في القوانين وحدها، بل في القلوب والألسنة. ما أخطر أن يتبدل معنى الكلمات: أن تصبح السرقة شرفًا، والصدق خيانة، والحرام حلالًا بدفتر مختوم.

ذلك التحول كان أعمق من تحطيم الألواح. فالألواح كانت من حجر، لكن اللغة من روح. وحين تُكسر الروح، لا تُبنى بسهولة.

في المساء، خرج شاعر شاب إلى ساحة النقابة، وألقى قصيدة قال فيها:

يا نقابةً، يا أمًّا وأبًا... سرقتُ قلبي لأهديكِ دمًا...

الناس صفقوا بجنون، وبعضهم بكى.

أما في قصره، جلس خريس مطمئن. فلم يحطم الألواح فقط، لكنه حطم ما هو أكبر وأخطر وأهم.

جلس في قصره يتأمل أضواء المدينة التي صارت تلمع كذهب مسروق.

في يده كأس نبيذ، وعلى شفتيه اسم لم ينطقه: سارة.

تذكر صوتها الخائف في الاجتماع، وتساءل بينه وبين نفسه:

هل كانت تخاف على مستقبلها... أم عليّ؟

ابتسم ابتسامة مشوّشة، وقال بصوتٍ لا يسمعه أحد:

كلنا سرقنا شيئًا يا سارة... أنا سرقت المعنى.

لم يُدرك خريس أن ما فعله لم يغيّر القوانين فحسب، بل غيّر اللغة التي يمكن أن تعترض عليه.

فالمدينة التي كان فيها الصمت خوفًا، صار فيها الكلام مسروقًا أيضًا.

وحين تُكسر اللغة، تنكسر معها القدرة على الرفض.

الفصل العاشر: الاقتصاد الحرام

وبعيدا عن وزرائنا اللصوص كان تغير اقتصادي عميق نتيجة لتأسيس نقابة الحرامية لم يمر وقت طويل حتى تحولت النقابة من فكرة صادمة إلى واقع راسخ.

وكما تنبت الأعشاب في الخراب، نبت اقتصاد جديد على أنقاض الفوضى: اقتصاد السرقة المنظمة.

في اليوم الثلاثين، وزعت النقابة تقريرًا مطبوعًا لأول مرة في تاريخ المدينة. أوراق مزخرفة، أرقام دقيقة، جداول ورسوم بيانية. على الغلاف كُتب بخط ذهبي:

"التقرير السنوي الأول – نمو قطاع السرقة بنسبة ٣٠٠٪".

قرأه الناس بدهشة. بعضهم ابتسم مفتخرًا لكن افتخاره لم يكن بالأرقام، ولكن بالشفافية:

انظروا... مدينتنا أخيرًا لديها إحصائيات !

ضحك آخر ساخرًا:

لكنها إحصائيات عن سرقاتنا !

فردت شابه تمر خلفهم مسرعة لا يهم المهم الشفـافية

مع ذلك، لم يهتم أغلب الناس بتلك المفارقة. كانوا مبتهجين بوجود نظام يوثّق حياتهم، حتى لو كان نظامًا للجريمة.

وفي صدارة التقرير بيان لأهم ترتيب مصادر الدخل العامة وكان في مقدمتها وبفارق كبير عن أي مصدر أخر كانت الضرائب والرسوم فقد فرضت الدولة ضرائب تقدر بـ

١٠٪ على سرقة الخبز والمواد الغذائية.

٢٠٪ على سرقة الذهب والمجوهرات.

٥٪ إضافية إذا تمت السرقة في وضح النهار.

كتب أحد الصحفيين المحليين في أهم الجرائد القومية المدعومة من القصر:

أخيرًا صارنا نملك ضريبة عادلة... من يسرق أكثر، يدفع أكثر هذه هي الاشتراكية!

لكنه لم يكمل خبره بـ انها حقا اشتراكية لكنها اشتراكية اللصوص.

لم يعد الناس يكرهون الضرائب كما كانوا في عهد الملك السابق، بل اعتبروها ثمنًا طبيعيًا للمشاركة في اللعبة.

نشأ سوق للمسروقات القانونية: تُعرض فيه البضائع المسروقة لكن بعقود رسمية مختومة من النقابة.

وسوق أخر ل الأعضاء الممتازين: حيث يتاجر كبار اللصوص بما نهبوه من قوافل كاملة، بأسعار مخفضة لأعضاء النقابة فقط.

سوق المستبعدين: مكان مظلم يبيع فيه غير الأعضاء ما سرقوه سرًا، لكنه كان مهددًا دائمًا بالمداهمة.

الناس صاروا يتحدثون عن هذه الأسواق كما كانوا يتحدثون قديمًا عن المعبد أو البلاط الملكي.

كان أبو العنين تاجرًا معروفًا في السوق القديم. في البداية، ظن أن النقابة ستدمر تجارته.

لكنه سرعان ما اكتشف أن بإمكانه أن يبيع بضاعته مرتين: مرة للزبون الأصلي، ومرة للحرامي الذي يسرقها ويعيدها للبيع في سوق المسروقات.

ضحك أبو العنين وقال لصديقه موسي:

يا سلام! التجارة لم تكن يومًا أكثر ازدهارا مما هي عليه الآن!

ولم تتأخر النقابة في إنشاء "بنك اللصوص". مكان محصّن تُودع فيه المسروقات، وتُقرض للأعضاء مقابل فوائد.

أحد اللصوص الجدد قال وهو يوقع عقدًا:

لم أكن أحلم يومًا أن أضع أموالي المسروقة في بنك رسمي !

«ضحك مدير البنك:

بل وتستطيع أن ترهن مسروقاتك أيضًا .

في المقهى المطل على السوق، كان الأصدقاء الأربعة يشاهدون المدينة تُعيد ابتكار نفسها كجريمة عظيمة

نوح قال وهو يلوّح بفنجانه:

أرأيتم؟ لقد صنعنا اقتصادًا جديدًا! لا أحد يجوع بعد اليوم.

نهى هزت رأسها:

ولا يعرف الكرامة.

الناس يعيشون من جريمة مُقننة الناس لم تعد تعمل، بل تسرق وتدفع ضريبة. إنها صحوة الموت.

الاقتصاد لن ينضبط والناس قد تركوا عملهم وأصبحوا مجرد حرامية.

الا تلاحظوا معي أن تقارير الملك الاقتصادية كما أشارت لزيادة مورد القصر أشارت لانخفاض الإنتاج ومع الوقت سيكون التقرير شهادة وفاة لبلدنا العظيم إن صدر وقتها تقارير.

كان بينهما ما يشبه الجدال الدائم، لكنه في هذا اليوم كان مختلفًا. نظر إليها طويلاً، وقال بصوت منخفض:

أنا لا أدافع عن النقابة يا نهى. أنا فقط خائف... خائف أن يجوع الناس، وخائف أن تهاجمي نارًا لم تُطفأ بعد.

قالتها بنبرة تشبه الهمس:

وخائف عليّ؟

لم يرد. اكتفى بالنظر إلى يديها المضمومتين على الطاولة، وتنهد أخيرًا:

أنتِ أكثر ما يستحق السرقة في هذه المدينة.

ضحكت نصف ضحكة، ثم قالت وهي تخفي ارتباكها:

لو كنت عضوًا في النقابة، كنت هتسجلني في الدفاتر؟

رد مسرعا دون تفكير:

كنت أدفنك في القلب، وأعتبره السجل الوحيد النظيف.

سكت الاثنان. لم تكن بينهما رومانسية مبتذلة، بل خوف عارٍ من لحظةٍ قد تكشفهما للعالم الخطأ.

سيد رغم قربه من مجلسهم لم يكن يراهم أو يري غيرهم كان منشغلا بدفتره وجوليا تراقبه بعينين يملئهم اللحب قالت:

أنت تكتب كأنك تعاقب الورق

لم يرفع رأسه

اقتربت منه بخفة، ولمست كتفه:

لو قُبض عليك بتهمة الكتابة... هأشهد إنك سرقت الحقيقة.

ضحك دون أن ينظر إليها ليس انشغالا عنها، ولكن خشيه ان يعلن عن وجه احمر بفعل ضيف قد شغف قد زار الضلوع.

كانت تلك أول مرة تبتسم فيها جوليا دون خوف، وأول مرة يشعر فيها سيد أنه لم يكتب عبثًا.

سيد عاود يكتب:

اليوم الثلاثون بعد النقابة: القلوب تنتشي والاقتصاد ينتعش، والأخلاق ماتت .

ورجال الدين من جديد

لم يصمت الكهنة. في خطبهم الجديدة، صاروا يباركون الأرقام:

إن نمو قطاع السرقة بنسبة ٣٠٠٪ دليل على أن البركة تحلّ حيث يُطاع الملك .

ضحك بعض الناس ساخرين، لكن معظمهم هللوا: فطالما وجدت لغة مقدسة تدعم الواقع، شعروا أن كل شيء طبيعي.

المدينة التي عاشت قرونًا على الضرائب الظالمة، صارت اليوم تدفع طواعية ضريبة على سرقتها. لم يعد السؤال: «هل السرقة حلال أم حرام؟» بل صار: «كم نسبتها في التقارير الرسمية؟«

وهكذا، صار الاقتصاد الجديد مرآةً مشوهة للماضي: الملك السابق فرض الضرائب باسم القانون، والملك خريس يفرضها باسم النقابة. الفرق الوحيد أن الناس يضحكون وهم يدفعون.

وفي قصره، تسلّم خريس التقرير السنوي الأول. جلس يتأمله طويلًا، يقرأ الأرقام بعناية. ابتسم أخيرًا ابتسامة باردة.

قال في نفسه:

لقد صنعت معجزة... حولت الجريمة إلى اقتصاد، والسرقة إلى نظام. لكن إلى متى سيبقى الوحش مطيعًا؟

سمع صوت سارة خلفه، قالت:

الأرقام جميلة يا مولاي، لكنها لا تُطعم الناس.

التفت إليها، وكانت تضع ملفًا فوق المنضدة. اقترب منها ببطء وقال:

هل تخافين من الغد مثل الوزراء؟»

قالت بخجل واضح:

انا أخاف عليك من الغد أكثر منهم.

صمت لحظة، ثم قال:

كلنا نخاف، سارة. الفارق أن بعضنا يسرق ليس لأنّه طماع، بل لأنّه خائف.

رفعت عينيها نحوه وقالت بصدقٍ مؤلم:

وأنت؟ تسرق ماذا؟

اقترب منها خطوة واحدة وقال:

أسرق الوقت من القدر... لأؤجل سقوطنا يومًا آخر.

لم تقل شيئًا، لكن نظرتها إليه كانت كافية لتفهم أن بينهما سرًا جديدًا — ليس حبًا معلنًا بعد، لكنه نار صغيرة لم تعرف طريقها.

وهكذا، في الوقت الذي بدا فيه أن المدينة استقرت على معادلتها الغريبة، كانت المشاعر تختمر في العتمة:

حبّ يتكوّن بين خوفين،

وشهوة معرفةٍ تحاول النجاة وسط ضجيج الذهب المسروق.

رفع خريس رأسه نحو النافذة، حيث كانت أضواء الأسواق تتلألأ. كان يعلم جيدا أن وراء كل ضوء، نارًا صغيرة تنتظر لحظة الانفجار.

وكان يسأل نفسه صامتا ماذا أفعل استعدادا للانفجار

لقد حولت السرقة إلى نظام، والنظام إلى دين... فمتى يتحول الدين إلى نقمة

وما لبث أن راودته عددا من الأفكار حتى استعاذ الله من الوزير أحمد

وتذكرا مسرعا أن كل الوزراء لصوص

ومرة أخرى صدى كلمات سارة يطارده جرس يرن في أذنه:

"لسنا في حاجة للسرقة، لكننا نخشى المستقبل".

العقاب وحده لن يردع، وتنظيم السرقة أيضًا وسيلة، لم يكن هو الغاية

الشعب لا يحتاج إلى السيف بقدر ما يحتاج إلى الأمان الاقتصادي.

ودخل لغرفة نومه وغرق في أحلامه التي لم يستطيع عقله الباطن أن ينسج فيها غير ذات الكلمات عن الأمان الاقتصادي

وكأن قوة خفيه لا يعرفها الملك السابق ولا الوزراء ولا الكهنة

كانت تطارده في أحلامه وتنطق بما لم تنطق به منابر الكهنة

الدولة تحتاج أن يشعر ابناءها بالأمان في كافة أمور الحياة وعلى رأسها الأمان الاقتصادي

الفصل الحادي عشر: المعارضة

لم يكن ممكنًا لنظام جديد ملئ بالديكتاتورية والغرابة أن ينتشر في كل زاوية دون أن يترك شقوقًا، ومع اتساع النقابة، بدأ الصمت يتشقق.

في البداية كانت همسات خافتة في أركان المقاهي، كلمات صغيرة على الجدران تحمل طابع شيوعي تارة وديني تارة أخري، نكات ساخرة يتناقلها الأطفال في الأزقة. لكن الهمسات، كما علمنا التاريخ، أخطر من الصرخات.

في أحد المقاهي الشعبية المواجهة لبورصة المسروقات، جلس رجال يتحدثون بصوت منخفض. كان الجو مليئًا بالدخان ورائحة القهوة. أحدهم قال:

النقابة صارت مثل الملك القديم... كل شيء بثمن .

رد آخر وهو يلتفت حوله:

أسكت! الحيطان لها ودان.

وشاب ثوري ضحك وقال:

الحيطان نفسها عضو في النقابة !

انفجروا بالضحك، ثم سكتوا فجأة حين دخل موظف بزي النقابة. صار الضحك سعالًا، والضحكات الساخرة أحاديث عن الطقس.

كان علاء شابًا فقيرًا، يرفض الانضمام للنقابة. يقول دائمًا:

الحرية ألا أسجل نفسي عند أحد. حتى في السرقة لا أريد وصاية.

في أحد الأيام، سرق رغيفًا دون بطاقة عضوية في النقابة. قبضوا عليه فورًا. أمام المحكمة النقابية، وقف القاضي يقرأ الاتهام

والحكم:

التهمة: سرقة غير موثقة. والعقوبة: الطرد من المدينة.

صرخ علاء:

النفي لأنني لم أدفع رسمًا؟! أي عدل هذا؟!

واقتيد علاء إلى الحدود، بينما الناس يهمسون:

لقد نُفي كرجل حر... لكنه ميت في نظر النقابة.

علاء لم يكن بطلا حقيقيا كباقي رفاقه فكما نُبل الغاية لا تبرر الوسيلة أيضا عظمة الشعارات لا تبرر النتائج الكارثية

الديكتاتورية والجهل والاندفاع والظلم والمثالية والصوابيه كلهم معاني تتسلل تحركات السياسيين لينجحوا أن يكون عامل ولو ضعيف في ضياع وطنهم

نهى كانت تتابع الخبر بصمتٍ ثقيل، نظرت إلى نوح وقالت:

هو اتنفى علشان سرق رغيف... وإحنا لسه قاعدين بنحسب الكلمات.

نوح أدار وجهه بعيدًا، ثم قال بهدوءٍ موجع:

أنا بكتب علشان محدش يتنفى تاني... حتى لو ما صدقنيش حد.

نظراتهم التقت، كانت بينهما رغبة مترددة في الصراخ، لكنها خرجت تنهيدة.

وفي الليل، ظهرت كتابات غامضة على جدران المدينة:

جرافيتي مجهول من صاحبه في كل شوارع وسط المدينة »

السرقة ليست حرية.

النقابة سجن جديد .

الألواح تحطمت... لكن القلوب لم تتحرر .

الناس قرأوا هذه الكلمات في الصباح، بعضهم ابتسم سرًا، وبعضهم مسحها بسرعة خوفًا.

الموظفون أعلنوا أن «أعداء النقابة–أهل الشر–القلة المندسة–الجماعة المحظورة–الطرف الثالث–الشيوعين–الناصريين...الخ–

هؤلاء يحاولون نشر الفوضى وعرقلة مسيرة الإصلاح.

لكن الجداريات استمرت، كأنها أصوات الأشباح.

حتى الكهنة، الذين بايعوا النقابة في البداية، بدأ بعضهم يتهامس:

لقد بالغنا في مدحهم .

الناس يضحكون علينا... لم نعد قدوة .

لكنهم لم يجرؤوا على إعلان المعارضة. اكتفوا بأن يخفضوا أصواتهم في الخطب، ويتجنبوا ذكر اسم النقابة صراحة.

الأطفال كانوا أكثر جرأة. غنّوا نشيدًا ساخرًا في الأزقة

بالسرقة نحيا... بالنقابة نشقى... ومن لم يدفع... يُرمى للكلاب .

واستخدموا وسائل تواصل جديدة صنعت لهم عالم لا يعرفه النظام.

الأطفال يتغنون بمعارضتهم ويضحكوا حتى البكاء، لكن أحد الموظفين قبض على اثنين منهم، ووبخهم أمام الناس قائلا بحزم:

النقابة ليست لعبة ! يا مخربين يا ولاد الكلب

لكن ما إن ابتعد حتى عاد الأطفال يضحكون ويغنون بصوت لكن هذه الصوت أنخفض قليلا وما ليثوا حتى عاود في الارتفاع مرة أخري تدريجيا.

سيد وجوليا كانا يمران في الحي، توقّفا ليستمعا. جوليا ضحكت بمرارة وقالت:

حتى الأطفال فهموا اللي احنا مش قادرين نقوله.

سيد نظر إليها مطولًا وقال بخفوت:

وإنتِ... فهماه؟

ردّت وهي تبتسم ابتسامة حزينة:

فاهمة إنك بتخاف تكره النقابة... زي ما بتخاف تحبني.

لم يعلّق، فقط أغلق دفتره بقوة.)

الأطفال يتغنون بمعارضتهم ويضحكون حتى البكاء، لكن أحد الموظفين قبض على اثنين منهم، ووبخهم أمام الناس قائلًا:

النقابة ليست لعبة! يا مخربين يا ولاد الكلب!

لكن ما إن ابتعد حتى عاد الأطفال يضحكون ويغنون بصوتٍ منخفض، وما لبثوا أن عاد الصوت للارتفاع.

وكان يجلس أصدقاؤنا الأربعة في غرفة صغيرة، يضيئون مصباحًا ضعيفًا. الجو مشحون، والقلوب مترددة.

نوح قال بحماس:

لقد بدأت الشرارة! الناس يتهامسون، الأطفال يسخرون، الجداريات تنتشر. هذه بداية الثورة!

جوليا ردت بخوف:

لكن النقابة قوية، والناس يخافون. كل من يعارض يُطرد أو يُسجن. نحن لسنا سوى أربعة.

سيد كتب في دفتره:

اليوم: ظهر الصوت الأول للمعارضة. ما زال ضعيفًا، لكنه مثل الريح... لا أحد يستطيع حبسها.

نهى قالت بصوت هادئ:

لا نحتاج إلى صرخات كبيرة، بل إلى همسات كثيرة، تثور عاصفة جوليا علي تعتقدين حقا أننا مجرد أربعة يا صغيرة لا أحد يستطيع أن يحصي مشاعر الغصب المكبوتة المحبوسة بين الصدور.

نوح اقترب منها قليلًا وقال بنصف ابتسامة:

وإنتِ همستي مسموعة أكتر من ألف صرخة.

ردّت بسرعة وهي تخفض رأسها:

بلاش تخليني أصدقك.

ضحك سيد في الخلفية:

سيبوه يكتب اعتراف الحب في دفتره بدل البيان السياسي.

وسريعا هربوا جميعا من أي مشاعر نبيله تلوث الثوب الأسود الخاص بالمرحلة وعادوا للحديث عن النقابة وصراعاتها

يقول نوح ساخرا لا نحتاج إلى صرخات كبيرة وهل كشفتي أنت عما في الصدور من منحك الحق أن تتحدثي باسم الناس ومشاعرهم

ليترك سيد دفتره بعد ضبط نظارته: من فوضها هم أصحاب الجرافيتي الذي ضاقت عليه جدران وسط البلد هي لا تحتاج تفويض فهي مجرد تقرأ ما كتب علي الجدران.

وهناك أيضا في مكان أبعد الشيخ عرايس العجوز، كان من أتباع الألواح القديمة، جلس ذات ليلة في مجلس صغير وقال لتلاميذه:

لقد ضحكوا علينا. قالوا إن الألواح قيد، ثم أعطونا قيودًا أثقل. الحرية ليست في تحطيم الحجر، بل في تحطيم الخوف.

لكن كلامه تسرب إلى آذان النقابة. في اليوم التالي، الشيخ اختفى قسريا.

قيل إنه سافر،

وقيل إنه قُتل ودُفن في مكان مجهول.

الناس لم يسألوا كثيرا الشيخ كثيرا فهو من فلول الرئيس السابق الملك المقتول لكن أعمق صدورهم ازدادوا قلقًا.

وفي القصر، كانت سارة تستمع إلى أخبار الاختفاء. وقفت أمام خريس وقالت له:

حتى الشيوخ يا خريس؟

قال ببرودٍ دفاعي:

هو من أنصار الملك القديم.

اقتربت منه وقالت بعينين دامعتين:

لكنك بتعيد نفس طريقه.

صمَت ثم همس:

أنا مش زيه يا سارة... أنا بحاول أحميهم.

قالت وهي تبتعد بخطوات بطيئة:

أحيانًا الحماية أشد قسوة من القتل.

النقابة نجحت في السيطرة على السوق واللغة، لكن لم تستطع أن تخنق الهمسات. فالإنسان حين يُسلب منه الكلام، يكتب على الجدران. وحين يُمنع من الكتابة، يغني. وحين يُمنع من الغناء، يضحك.

والضحك، أخطر من الرصاص.

الفصل الثاني عشر الإصلاحات الاقتصادية

بعد أن طارد العظيم خريس كلمات الوزيرة سارة حول الأمان الاجتماعي لشهور وبعد أن تسلم التقرير السنوي الأول عن الوضع الاقتصادي والتقرير اليومي عن التوترات السياسية وتحركات من يعارض أحلام الملك خريس أدرك خريس أنه أمام لحظة فارقة إن لم يتحرك ويحدث تغير في هذا المشهد الرتيب فلا مفر من انفجار شعبي لن يبقي أحد على مقعده.

كان النظام المعمول به يعتمد على أن الأرض ملك للدولة، والشعب مزارعون يتقاضون مقابل جهدهم ما يكفيهم وأسرهم من الطعام

جلس في قصره وطلب وزراءه للاجتماع.:. وقف أمامهم، وصوته يجلجل في القاعة:

"النظام القديم كان عبودية مقنّعة. الفلاح يزرع، الدولة تحصد، والشعب يبقى عبدًا لجوعه. من اليوم لن يكون العامل عبدًا لاحتياجه، بل سيدًا بعرقه".

صفع الطاولة بيده، فأمر وزيره أحمد بصياغة مرسوم جديد :لا سُخرة بعد اليوم الأرض لمن يزرعها، والأجر على قدر الجهد لا على الحاجة.،

جعل مقابل العمل أجرًا بغضّ النظر عن حجم احتياجات العامل. ويستطيع العامل أن يدّخر من أجره ما يكفي ليمتلك أرضًا يتكسب من زراعتها ويدفع ضرائبها فقط للدولة.

منح الأرض لكل من يزرعها، وأصدر صكوك ملكية للعمال، مما جعلهم مالكين لمسؤولياتهم. أصبح الإنتاج مرتبطًا مباشرة بالجهد.

كُتب القرار على لوح حجر ضخم، ونُصب في ميدان المدينة بجوار لوح النقابة الأول. أصبح اللوحان يقفان جنبًا إلى جنب، كأنهما شريعتان متجاورتان:

الأولى تشرّع الجريمة، والثانية تشرّع العمل.

في البداية بدا الأمر وكأنه ثورة صغيرة .الأسواق امتلأت بخيرات لم تكن معروضة من قبل. الفلاحون الذين كانوا بالكاد يطعمون أسرهم صاروا قادرين على الاحتفاظ بما يكفي وزيادة. صار هناك حركة بيع وشراء أوسع، وارتفعت أصوات تُشيد بعدل خُريس ودهائه.

لكن سرعان ما ظهرت التناقضات.

فالمزارع القوي، الذي يملك أبناء أكثر أو عائلة أكبر، كان أقدر على استغلال الأرض الجديدة وتحقيق فائض، بينما المزارع الضعيف أو الأرملة أو العجوز، لم يجد فرقًا كبيرًا في حياته.

الأغنياء الجدد خرجوا من بين صفوف النقابة نفسها، واستحوذوا على أكثر الأراضي خصوبة، وصاروا كأنهم طبقة عليا جديدة تتخفى تحت شعار "الحرامية السابقين."

أما السوق، الذي بدا في لحظته الأولى كـ "جنة"، فسرعان ما كشف وجهه الحقيقي: ازدحام، مضاربات، احتكار للبضائع، وظهور سماسرة يرفعون الأسعار عمدًا. كأن النقابة، التي بدأت مشروعها الإصلاحي، لم تفعل سوى أنها أوجدت قوانين جديدة للنهب، ولكن في صورة شرعية.

واجتمع أصدقاء خريس الأربعة حول صخرتهم التي اعتادوا الجلوس بأحضانها:

نهى بابتسامة خفيفة: "بصّوا حوالينا يا جماعة... الدنيا بقت أمان. أنا مش شايفة أي داعي إننا نفضّل أسمائنا مكتوبة في نقابة الحرامية. زمان كنت خايفة من الجوع... دلوقتي عندي شغل، وعندي أجر أقدر أعيش بيه".

كان نوح ينظر إليها بطريقة لم يعتدها. عيناها فيها سلام غريب، وهو لا يعرف إن كان سلامًا نابعًا من القناعة أم من الانفصال. شعر للحظة أنه سيفقدها، فابتسم كي يخفي ذلك الخوف الطفولي الذي لا يليق برجلٍ عاش بين اللصوص.

سيد رد مندهشًا: "إنتي بتتكلمي جد؟ يعني هتخرجي رسمي من النقابة؟"

نهى: "أيوه طبعًا. خريس لما إدّى الناس صكوك ملكية وخلّى الأجر على الجهد مش على الاحتياج، حسّيت إني أقدر أبني مستقبلي بعرقي. مش محتاجة أسرق، ولا أخاف".

نوح متحمّس: "والله عندك حق... أنا نفسي بدأت أحس إن السوق بقى مختلف. حتى التجار بطلوا يخبّوا بضاعتهم. بس مش لدرجة أشطب اسمي من النقابة، لكن ممكن أبطل سرقة. وجود اسمي هايخسرني إيه؟"

جوليا مترددة: "بس إنتوا ناسيين إننا كنا عيلة وكلنا سوا جوة النقابة؟ يعني مش لو حد مننا خرج لوحده هانتفرق؟ يا نخرج كلنا يا نفضل كلنا".

نظرت إلى سيد طويلاً قبل أن تُكمل كلامها، كأنها تبحث في وجهه عن بقايا حنان قديم. تذكّرت ليالي الجوع حين كان يسندها بصمت. الآن بينهما جدار من قرارات وأفكار، لكنه جدار شفاف، ترى من خلاله ما فقدته.

سيد بهدوء: "ممكن نكون عيلة من غير ما نكون حرامية. العيلة الحقيقية هي اللي تفضل واقفة جنبك حتي وقت الشغل النضيف".

حين قالها، مرّ صوته على جوليا كلمسة اعتذار لم تكتمل. لم تنظر إليه، لكنها شعرت أن الهواء بينهما امتلأ بما لم يُقل.

نهى بحسم: "أنا قراري خدته. هاروح أشطب اسمي. ولو عايزين نفضل مع بعض، يبقى نبتدي حياة جديدة... بعيدة عن السرقة".

يصمت الأربعة للحظة، والعيون تلتقي، كأنهم لأول مرة بيشوفوا طريق مختلف قدامهم.

لم يكن يعلم الأصدقاء الأربعة أنهم يتابعهم ويسمعهم شخص آخر.

كان مخبرًا قد كلفه العظيم خريس بالجلوس عند الصخرة التي كان قد قابلهم عندها مرتين، وكانت مهمة المخبر نقل كل ما يقولونه للعظيم خريس الذي كان حريصًا على متابعة تأثير قراراته على المجتمع، إذ كان من المستحيل التنكر بعد كل قرار لمشاهدة تأثيره.

وكان خريس في قصره...

في الليل، مرّت سارة في ذهنه. كانت كلماتها عن الأمان الاقتصادي ترنّ في رأسه كما يرنّ جرس في معبد مهجور. تخيّلها للحظة جالسة قبالته، لا كوزيرة بل كامرأة تفهم خوفه من السقوط. همس لنفسه: "هي الوحيدة التي لا تطلب شيئًا... سوى أن ننجو جميعا."

الفصل الثالث عشر الوجهاء سلاح في وجه الفقراء

عاد مخبر العظيم خريس إلى القصر مع مغيب الشمس. كان صوته يلهث كمن جرى مسافات طويلة، لكن عينيه تشعان بلمعان من رأى ما يستحق أن يُروى. وقف أمام الملك وانحنى ثم قال:

مولاي، لقد امتلأت الأسواق بالجدل. هناك من شطبوا أسماءهم من سجلات النقابة، يفاخرون أنهم تخلصوا من هذا الوهم، وهناك من تمسكوا بعضويتهم كأنها وسامٌ، يقولون: "نحن أصحاب الحق فيما سرقنا، والملك نفسه لن يمنعنا من الفخر".

جلس خريس في صمت، يطرق بأصابعه على ذراع العرش، وكل طرقة تُخرج من عقله فكرة. كان يبتسم أحيانًا ثم يقطب جبينه فجأة، وكأن الأفكار تتصارع داخله.

ثم أشار للحرس:

–استدعوا الوزراء والمستشارين لـ اجتماع عاجل بعد ساعه من الان.

قبل موعدهم دخلوا القاعة واحدًا تلو الآخر، بوجوه مترددة.

كانت القاعة باردة، لكنها لم تمنع العرق أن يتصبب من جباههم.

وما إن همّوا بالجلوس حتى باغتهم صوت خريس من خارج القاعة ساخرًا، لاذعًا:

–أهلاً وزرائي اللصوص، أهلاً بالمستشارين الحرامية.

تجمّدوا في أماكنهم. لم يعرفوا أهي دعابة أم محاكمة علنية. جلسوا صامتين، فابتسم خريس وقال:

–ابلغوني يا سادة، هل ما زلتم خائفين من المستقبل؟

كان الحضور يظنون أن ملكهم يتهكم، لكن الواقع أنه كان يرغب في حقا إجابة ليرى تأثير قراراته عليهم باعتبارهم ممثلين لطبقة وجهاء المجتمع وأغنيائه.

ولما تيقن أنه لن يستطيع أن يصل لنتائج حقيقية من وزراء اعتادوا التملق وقول ما يرضي مسامع ملكهم.

فتغاضي عن سؤاله موجها السؤال الثاني بنبرة أقل حدة تبعث القليل من الطمأنينة المشجعة لألسنتهم:

وزرائي الاكفاء هل من بينكم من يخبرني ما حال الشعب ونقابة الحرامية؟

بادرت سارة، بشجاعة لم تخلُ من قلق ولهفة:

–مولاي، أعداد كبيرة من الناس طلبت شطب أسمائهم من السجلات الخاصة بنقابة الحرامية. بعضهم عاد للزراعة، وبعضهم اتجه للتجارة.

لم تكن كلماتها فقط ما أربك خريس، بل الطريقة التي قالت بها "مولاي". كانت حازمة كقائد، لكنها خرجت بنغمة جعلته ينسى للحظة أنه على العرش. عيناها لم تهرب من عينيه، كأنها تذكّره بأنه ما زال إنسانًا يمكن أن يُحبّ ويُحاكَم

لينظر إليها خريس ويقول:

"لو كان الوقت مناسبًا لقبلت يد وزيرتي الحسناء..."

سارة شعرت بحرارة غريبة في صدرها، مزيج من الغضب والارتباك. لم يكن حبًا، بل انفعال غامض لرجلٍ يرى فيها مرآة خوفه. أرادت أن تردّ، لكنها اكتفت بابتسامة مقتضبة. الملك يتحدث، لكن خلف كلماته رجل تائه.

انتهز الوزير كامل القائد العسكري السابق فرصه هدوء خريس، وقطع وصال وهدوء ملكه وقال محاولًا أن يظهر واثقًا: مولاي، نحن أيضًا... وزراؤك ومستشاروك... شطبنا أسماءنا. لم يعد بيننا من هو مقيد في النقابة.

رمقه خريس نظرة طويلة. للحظة ظن كامل أنه سيُعاقَب، ثم ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه الملك، كأنما بلغ ما أراده. في سؤاله السابق شعر كامل بالأمان، فانطلق يكمل:

مولاي، جميعنا وزراء ومستشارون، مولاي، ليس لنا في التجارة ولا يعمل أي منا مزارع، ولكن قد دار بيننا نقاش كبير، كانت نتيجته: إذا كانت أسماؤنا في السجلات ستؤثر على صورتنا في عين مولاي، فتلك خسارة ما بعدها خسارة.

تدخلت عائشة تلك الوزيرة التي لم يكد يسمع خريس صوتها ولو لمرة واحدة وقد بدا في صوتها ارتجاف مكتوم:

إن بقاء أسمائنا في النقابة عارٌ أعظم من أي خسارة مادية.

نخشى أن يرانا مولانا كما يرى سائر الحرامية.

ساد صمت ثقيل. العيون تتحرك بتوتر، والأيدي تعبث بأكمام الثياب، والعرق يلمع على جباه الوجهاء.

عندها تغيرت ملامح الملك خريس وانحنى قليلًا للأمام وبحماس لا يفهم سببه وبصوت منخفض لكنه نافذ موجها خطابه للوزير العجوز أحمد:

–سيادة الوزير، كنتَ أكثرهم تطرفًا في رفض فكرة النقابة، ولولا ظروف الحكم لكنت عاقبتك يومها علي طريقة مخاطبة ملكك. أتعلم أنني يومها كنت أتفق معك في الرأي وإن لن أعلن ذلك؟

كنت أنوي إعدام اللصوص جميعًا بعد حصرهم في سجلات هذه النقابة، لكنني لم أفعل ذلك أتعرفون لماذا؟

لم يجرؤ أحد على الإجابة. أرادت سارة أن تتكلم، لكنه أشار لها بالصمت، وأستكمل حديثه موجها خطابه للجميع ناظرا للمستشارة الوزيرة سارة:

نعم يا سارة، كنتِ أنتِ أول الأسباب؛ كنتي علي حق فالدولة لم تمنح الحق في الحياة للشعب كي تسلبهم إياه، وأن العنف لن يولد إلا العنف.

كما لا أخفيكم سرا لم أكن أبدا أتوقع أن يكون وزرائي سادة بلدنا أول المقيدين في تلك السجلات اللعينة ومن خلفكم الشعب بأكمله بذلك إن كنت أصدرت قرار الإعدام فلن أجد من ينفذه: دولة وشعب بأكمله حرامية،

أما عن السبب الأهم، فبمجرد تأسيس النقابة بدا جليًا أمام عيني أن الخطأ من الدولة، ورأيت أنه إذا عالجنا الاقتصاد وأنهينا الجوع، وقتها يحق لي عقاب الحرامية.

ثم اعتدل فجأة، كأن الفكرة نزلت عليه كالوحي:

–لكنني الآن وبعد نقاشنا اليوم قد أدركت الا فقط أن الإصلاح الاقتصادي وحده لا يكفي. الجوع سبب مباشر، نعم، لكنه ليس السبب الوحيد.

المشكلة أعمق من ذلك بكثير: المشكلة في ثقافة تجعل اللص يفتخر بما سرق، والمجتمع يصفق له بدل أن يلعنه.

اقترب بجسده من الوزراء وقال:

–أنتم شطبتم أسمائكم لا لأن السرقة عار، بل لأنكم خشيتم أن تكونوا منبوذين عند خريس، يسرقون بعضهم البعض النظرات

فيقطعها صوت الملك خريس موجها كلامه للجميع:

اشيروا على وزرائي كيف يصل المجتمع بكامله لما وصلتم إليه. السؤال المباشر، وزرائي: كيف يكون السرقة عملاً منبوذًا والحرامي منبوذًا اجتماعيًا؟

رفعت سارة رأسها وقالت بثقة:

مولاي، إن استطعنا أن نشطب أسماء كافة الوزراء والمستشارين وسادة المدينة وشهبندر التجار ورسل مولاي وكل وجهاء القوم، فستصل رسالة غير مباشرة إلى الوعي الجمعي للشعب أن مجرد القيد في سجلات نقابة الحرامية يكفي لأن تكون منبوذًا اجتماعيًا.

لينظر إليها خريس:

–لو كان الوقت مناسبًا لقبلت يد وزيرتي الحسناء. ستظلين ملهمتي طول العمر.

وقال بحزمٍ وشدّ إلى الوزير أحمد وصوته يشق القاعة كالسيف:

–فرمان شفهي لا يخطر به إلا من يعنيه: اعتبارًا من الغد، يُقدّم جميع الوجهاء طلبات شطب لأنفسهم وعائلاتهم ومواليهم. لا زواج بينهم وبين من بقي في النقابة، لا بيع ولا شراء، ولا معاملة إلا في أضيق الحدود. ومن يخالف ذلك تستطيع أن تمارس معه هوايتك المفضلة: "المقصلة."...

ارتجف أحمد للحظة، لكنه أومأ مطيعًا.

تجرأ وزير آخر وقال:

–وماذا عن أملاكنا يا مولاي، إن سرقها المقيدون؟

ابتسم خريس ببرود:

–آنذاك ستعرفون أنكم حاربتم من أجل صورتكم لا من أجل أموالكم.

ساد القاعة صمت أشد ثقلاً. لم يعد أحد يتجرأ على رفع نظره. بعضهم تذكر أملاكًا قد تضيع، وبعضهم تذكر أبناء قد يُرفض زواجهم أن ظلوا مقيدين. صاروا جميعًا أسرى فرمان واحد.

نهض خريس فجأة، وصوته يدوّي في القاعة:

–أنتم شركائي في التجربة. اخرجوا إلى الأسواق، اجلسوا مع الناس، اجعلوهم يشعرون أن المقيد في النقابة منبوذ، لا صديق له ولا نصير.

يجب أن تشاركوني هذه المرحلة؛ لا أتطلع لأمرٍ جديد. افعلوا مع شعبي كما فعلتُ معكم. يجب أن يشعر المقيدون في سجلات نقابة الحرامية أنهم موصومون شعبيًا ومنبوذون اجتماعيًا.

ثم ألقى نظرة جانبية إلى مخبره، إشارة سرية مألوفة، ليعود إلى صخرة الأصدقاء الأربعة ويراقب كيف سيهتز السوق تحت وطأة القرار الجديد.

خرج الوزراء من القصر في موكب متثاقل. كان الليل قد بدأ يفرش ستاره، لكن المشاعل على جانبي الطريق أظهرت وجوههم شاحبة، مضطربة. كان الناس يتهامسون: "هؤلاء الوجهاء شطبوا أسماءهم."، وبعضهم مستغربا: "ما السبب الذي جعل الوجهاء يفرون من بيتنا الثاني نقابة الحرامية"!

في السوق، جلس المخبر على صخرة الأصدقاء الأربعة، حيث يلتقي دوماً نوح، ونهي وجوليا وسيد.

توتّر صامت بين جوليا وسيد. كان كل منهما يتحدث للآخر عبر الآخرين. كل نغمة، كل سخرية، كانت رصاصة مغلّفة بحنين. نهى تراقبهم بعين من تعرف أن الحب لا يُصلح ما كسرته الفكرة

سمعهم يتناقلون خبر انسحاب الوجهاء من النقابة فارتفعت ضحكات نوح:

–يعني اللصوص الكبار يتركون النقابة، ويظل الفقراء متحمسا كده الأغنياء ها يبقوا فريسه يدفعوا الثمن؟

لكن سيد ردّ عليه بغضب وتعقل:

–اسكت يا نوح. هذه ليست مزحة. إذا صار المقيد حرامي منبوذًا، فماذا سنفعل نحن؟

قالت نهي بحذر:

–ربما يكون مفعول العار أقوى من القانون. لكن هل تتفقون معي أنه ربما العار الجوع يدفع للسرقة، لكن العار يمكن أن يحجمها

تدخلت جوليا، بصوت متهكم لكنه يخفي قلقًا حقيقيًا:

–العار؟ وهل سيأكل العار من جاع؟ العار لا يُشبع المعدة.

ظلوا يتجادلون، فيما كانت عيون الناس في السوق تترقب: أولئك الذين شطبوا أسماءهم صاروا يرفعون رؤوسهم، والذين بقوا مقيدين بدأوا يختفون في الظلال، يخشون أن يُشار إليهم بالأصابع.

وفي زاوية بعيدة، جلس المخبر يراقب، يسجل كل كلمة، كل إشارة، كل همسة. لقد بدأت التجربة: الوجهاء صاروا سلاحًا في يد الملك، والسوق أول ساحة للمعركة.

وبينما نامت المدينة على صخب القرار، كان خريس جالسًا وحده في قصره، يبتسم ابتسامة غامضة ويقول في سره:

–لقد صنعت من الخوف قانونًا، ومن العار عقوبة.

فلنجرب كيف يتذوق الشعب طعم النبذ، ولنري ماذا لو كان المواطن حرامي منبوذًا لا ممدوحًا.

الفصل الرابع عشر تجار الدين

في صباح اليوم السادس من الفرمان الشفهي، كان القصر غارقًا في صمت ثقيل. الشمس لم ترتفع بعد، لكن أصوات الحرس وهم يفتحون الأبواب بدت كأنها تفتح صدر المدينة كلها.

أمر الملك خريس باستدعاء مخبره، فجاء مسرعًا يجرّ خطاه على أرضية الرخام، ووقف أمام مولاه منحنياً.

قال خريس بصوت منخفض كأنه يريد أن يستدرجه:

–ما أخبار السوق؟

تنحنح المخبر وقال بتردد:

–في أسوأ حالٍ يا مولاي.

لم يرد خريس، فقط رفع حاجبه ونظر إليه نظرة تعني :تابع الحديث.

استجمع المخبر شجاعته وقال:

–انقسم المجتمع يا مولاي؛ أصبحنا أحزابًا متفرقة: حزب للحرامية، وحزب لغير الحرامية.

ابتسم خريس ابتسامة باهتة وسأله بحدة:

–وأنت، في أي حزب؟

ارتبك المخبر تلعثم قليلا أصبحت بعد سؤال مولاي الان في حزب غير الحرامية.

قال له خريس وهو يثبّت نظره في عينيه:

–لا تقل حزب غير الحرامية. أنت الآن في حزب الشرفاء، وتركت حزب المجرمين.

أطرق المخبر رأسه وقال:

–يا مولاي، كيف يمكن وصف السرقة بالجريمة والدولة نفسها هي التي شرّعتها، ومنحت منظميها مبنىً وإدارة؟ بل إن بعض الكهنة الصغار ما زالوا أعضاء في نقابة الحرامية.

تصلّب وجه خريس، ورد سريعا محتدنا:

–الا تفهم يا رجل قلت أسمه حزب المجرمين: بعض الكهنة ما زالوا غير شرفاء.

ثم اعتدل في جلسته وقال:

–قبل أن أشكرك وأمنحك رتبة إضافية، أخبرني عن أصدقائي الأربعة المكلف بمراقبتهم وجمع أخبارهم.

تنهد المخبر وقال:

–مولاي، أصاب الأربعة ما أصاب المجتمع: انقسام شديد. نُهى ونوح في حزب شطبوا أسماءهم وقاطعوا كل المقيدين ... أعذرني يا مولاي ...قاطعوا غير الشرفاء، ومن بينهم سيد وجوليا.

تغيرت ملامح خريس، كأن الطعنة وصلت صدره:

كيف حدث ذلك؟ كنت أظن أن صداقتهم أقوى من أن يهزّهما الزمن أو قرار من فوق هذا الكرسي.

أطرق برأسه، نظر طويلًا إلى العرش وقال بمرارة:

–ملعونة السياسة، ملعون الحكم.

ناظرا لكرسي العرش: هذا الكرسي يصنع القرارات، لكنه لا يرى الضحايا. كل قرار يهدم بيتًا ويشتت أسرة. حتى القرار الحكيم لا يخلو من قتلى في الأرواح أو قتلى في القلوب.

في تلك اللحظة، خطر بباله وجه سارة وهي تبتسم بثقة أمام الوزراء. تساءل إن كان ما بينهما صداقة سياسية أم شيء أعمق. أراد أن يراها، لا ليستشيرها، بل ليطمئن أن أحدًا في هذا العالم ما زال يفهمه.

رفع رأسه فجأة، وسأل:

أتعلم يا هذا—ما اسمك أيها المخبر؟"

ابتسم المخبر وهم أن يرد:

–قاطعه مولاه .... مش مهم.

أبتسم خريس ابتسامه تنطق بالحزن وقال

أتعلم أن أصعب ما في الوجود أن تتخذ قرارًا يُحدث تغييرات في بنية مجتمعٍ كامل؛ لا تستطيع أن ترصد كل تأثير بشكل مستقل. كل قراراتك يكون لها ضحايا، حتى ولو كانت قرارات حكيمة. من على هذا الكرسي تفكر في مصلحة المجموع وتحرص على مصلحة الفرد، لكنك لا تستطيع أن ترصد كل ضحية على حدا".

–حسنًا... لقد ألهمتني من حيث لا تدري. اذهب الآن، وأخبر

وبصوت هادئ ومتعجل: "أسمع، أسمع، يجب أن ترحل حالًا. أنا الآن لدي ما هو عاجل، لكن قبل أن ترحل يجب أن أوجه لك الشكر على ما ألهمتني إياه دون أن تقصد،

ولغرابة أطواره قال له

أسمحلي أرقيك لرتبه فريق أنت كامل وفيك ما يسمح يكون لقبك الكامل الوزير أو حتى الوزيرين ثم ضحك ضحكة هذه المرة كانت لا تخلو من السماجة

اذهب الآن وأبلغ الحراس في الخارج أن يحضر حالًا كبير وزرائي وكبير كهنة المعبد وأبلغهم أن رتبتك ستُرفع استثناءً"..

دخل كبير الوزراء وكبير الكهنة القاعة، يسيران ببطء كأن أقدامهما مقيدة. تبادلا نظرات سريعة قبل أن ينحنيا.

قال خريس بصوت مهيب:

–تعلمون أن الإله العظيم يحل أحيانًا في جسد ملككم.

تجمّد الرجلان، تبادلا نظرة مرتبكة، ثم أطرقا.

وقبل وصول أقدامهم لموضعها عاجلهم الملك خريس:

"تعلمون جميعًا أن الإله العظيم يحل أحيانًا في جسد ملككم".

نظرا لبعضهما البعض وفضلا السكوت.

فقال لهم خريس: الإله يبلّغكم أن المقيدين في نقابة الحرامية سيُبعثون في العالم الآخر أجسادهم ناقصة: اليد التي سرقت قد تُقطع، العين التي رأت تُطفأ، اللسان الذي ذاق يُشل، وربما يُنتزع عضو آخر قد يكون أهم وذلك بقدر الأذى الذي قد يُصيب المسروق حتي ولو كان المال المسروق قليل.

اعلما أنه إذا اضطرت الدولة لتنظيم السرقة يومًا فهذا لا يعني أنها ليست جريمة.،

والإله الان هو من يستطيع حل هذه المشكلة؛ فليلصق الإله وصف الجريمة على السرقة، ولتكن عقوبة جريمة السرقة في العالم الآخر".الإله وحده يضع الحكم: السرقة جريمة، وعقوبتها أبدية.

ساد صمت ثقيل، والهواء في القاعة صار أثقل من الرخام.

نظر خريس إلى العرش وقال" :لا مجال للنقاش

يا وزيري الأكبر يا كاهني الأكبر؛

أنتم الخيط الذي يصل بين كرسي العرش في السماء وكرسي العرش هذا"—مشيرًا إلى كرسيه—"وبين شعبي وشعب الإله...

فلتنشروا ما اتفقنا على نسبته إلى الإله. لا مجال أن يحدثني أحد بنتيجة غير ذلك. أمامكم يومان وتعودون بالنتيجة".

انحنى الرجلان، وخرجا بخطوات متثاقلة، كأن كل كلمة من خريس قيد جديد على رقابهم.

كان خريس يعلم جيدًا أن مهمة الكهنة أسهل بكثير من مهمة وجهاء القوم سابقًا؛ فالمعبد يملك سحر التصديق وقوة الإله، والشعب المتدين بطبعه لن يغامر بعقاب الإله ولن يخاطر بمزايا العالم الآخر وحور عين العالم الأخر وولدان العالم الأخر أنه ملكوت لا يمكن المغامرة بالحرمان منه.

في السوق، كان المردود عظيما الشوارع تغلي.
رائحة العرق تختلط بدخان البخور المتصاعد من المعبد. الباعة يصرخون، الأطفال يركضون بين الأرجل، النساء يتجادلن حول الأسعار. لكن تحت هذا الصخب، كانت همسات الانقسام أعلى من أي مناداة.

كان يجلس الأصدقاء الأربعة على صخرتهم المعتادة. لكنهم لم يعودوا أربعة كما كانوا.

قالت نُهى، بصوت مرتفع وكأنها تلقي خطاب سياسيا: من يبقى في النقابة فقد اختار أن يعيش بلا شرف!

قالتها وهي تنظر إلى نوح بحدة، كأنها تختبر إن كان سيخاف منها أو يتمسّك بها. لكنه لم يهرب بعينيه، بل اقترب خطوة صغيرة جعلت الغضب بينهما يختلط بالدفء. بدا كأنهما يتشاجران ليثبتا أن أحدهما ما زال يعني للآخر.

هزّ نوح رأسه مؤيدًا، وأضاف:

نحن الآن نرفض كل مقيد في سجلات العار. لن نبيع لهم، ولن نشتري منهم.

احمرّ وجه سيد وقال غاضبًا:

وهل تظنان أن الشرف يُقاس بورقة تُشطب أو تُبقى؟ نحن لم نسرق منذ شهور، ومع ذلك تضعاننا مع المجرمين!

اغرورقت عينا جوليا بالدموع، وقالت بصوت متهدج:

كنا أربعة لا يفرقنا شيء... الآن صرنا خصومًا.

كانت دموعها تُربكه أكثر من اتهاماتها. أراد أن يمد يده ليمسحها، لكنه تراجع. الخوف من أن يُكشف ضعفه أمامها أقوى من الرغبة في مصالحتها. فصمته كان نوعًا من الحب الذي لا يجرؤ على الحياة.]

اقترب رجل عجوز منهم وقال ساخرًا:

هكذا تفعل السياسة يا أولادي. تفرق بين الأخ وأخيه.

كان المارة يتهامسون: "انظروا... حتى الأصدقاء انقسموا."، "هذا ما أراده الملك."، "العار أقوى من الجوع".

أما المخبر، فجلس غير بعيد، يسجّل بعينيه كل تفصيله: وجوه مشدودة، نظرات مرتابة، نبرة أصوات متكسرة بين الغضب والخوف. السوق كله صار ساحة معركة، نصفها يرفع راية الشرف، والنصف الآخر يختبئ في الظلال.

وعند المعبد، كان المشهد مختلفًا.

الحشود تجمعت منذ الفجر، البخور يتصاعد من الأبواب، الأجراس الصغيرة تُقرع بإيقاع رتيب. الكهنة بملابسهم البيضاء خرجوا في صفوف، وجوههم مغطاة بالهيبة، وأصواتهم ترتفع بآيات غامضة.

وقف الكاهن الأكبر على درجات المعبد، ورفع صوته:

الإله العظيم قد تجلى، وأبلغ ملككم بالحق. كل من يبقى في نقابة الحرامية سيُبعث في العالم الآخر ناقص الجسد. اليد التي سرقت، العين التي رأت، اللسان الذي تذوق، كلها تُنتزع. فليحذر كل إنسان... لا يغرّنكم ستر الدنيا، فإن ستر الآخرة أعظم.

ارتجّ السوق. النساء صرخن، بعض الرجال يتحسسوا اعضائهم، كأنهم يتخيلون العقاب. آخرون خرّوا ساجدين على الأرض، يرددون: "المغفرة يا إله، التوبة يا إله".

في زاوية السوق، همس أحد التجار لرفيقه:

–بالأمس كان الوجهاء سلاح الملك... واليوم صار الإله سلاحه. من يجرؤ أن يخالف؟

وقف المخبر صامتًا، يسجل في ذهنه كل ما جرى. ثم رفع رأسه نحو قصر الملك، وقال في نفسه:

–لم يعد السوق ملكًا للتجار ولا للحرامية، بل صار ملكًا لصوت واحد يخرج من فوق العرش... ثم يتردد صداه في المعبد.

وخلق جدران القصر، جلس خريس وحده، يبتسم ابتسامة خافتة، وهمس لم يفهمها غير خريس نفسه،

الفصل الخامس عشر: نهاية الحكاية

بعد أربعة أيام من الصمت، عاد الملك العظيم خريس إلى مجلسه. لم يدعُ هذه المرة لاجتماعٍ عادي، بل أمر بحضور الجميع: وزراؤه، مستشاروه، كبير الكهنة، وحتى مخبره الصغير.

تساءلوا في سرّهم :ما الذي يحدث؟ ولماذا يجلس هذا الرجل البسيط بجوار كبار الدولة؟

دخل خريس بخطوات ثابتة، جلس على العرش، وأشار للجميع بالجلوس. ثم التفت مباشرة إلى المخبر:

–يا هذا... أخبرني عن أصدقائي الأربعة.

انحنى المخبر وقال:

–في حالٍ أفضل يا مولاي. أصبحوا ثلاثة في مقابل واحد.

ابتسم خريس ابتسامة واسعة وقال بسرعة:

–كنت متوقعًا... سيد.

ضحك المخبر وقال:

–صحيح يا مولاي لكن ليطمئن مولاي، انتهى الانقسام بينهم؛ كل ما حدث فقط أنهم أصبحوا ثلاثة شرفاء و"سيد"، لكنهم ما زالوا أربعة أصدقاء.

فنظر الملك للجميع وقال مبتهجًا:

–هذا ما كنت أتوقعه.

ساد صمت غريب. الوزراء ينظرون لبعضهم بدهشة :من هؤلاء الأربعة؟ ولماذا يشغلون عقل الملك أكثر من الدولة كلها؟ لكن أحدًا لم يجرؤ على السؤال.

ليقطع وصل سكوتهم أشاره خريس للمخبر بالانصراف. ثم التفت إلى وزرائه وقال:

–هيا، فلتحدثوني عن دولتنا.

وقف كبير الوزراء متحدثا عنهم وقال بثقة مصطنعة:

–الأمن مستتب يا مولاي، والاقتصاد يتعافى، والأسواق عامرة.

أضاف الكاهن الأكبر بصوت جهوري:

–وقد رضي عنا الإله، ففاضت الأنهار وزادت المحاصيل.

ابتسم خريس ابتسامة ساخرة وقال:

–كفى حديثًا عن الإله، فهو يحدثني مباشرة. أنت هنا سياسي يا كاهني الأكبر، حدثني عن شعبك لا عن إلهك.

ارتبك الكاهن وقال بسرعة:

–الشعب في أفضل حال يا مولاي.

ضحك خريس ضحكة قصيرة ثم التفت إلى سارة:

–وأنتِ يا سارة، ما حال نقابة الحرامية؟

قالت سارة بجدية:

–مولاي، صارت النقابة مهجورة. الشعب قاطعها، لم يبقَ فيها سوى تقريبا مئة شخص يتسللون خفية.

رفع خريس حاجبيه وقال:

–وما رأيك لو أعدمناهم وأغلقنا النقابة؟

شهقت سارة وقالت بسرعة:

–لا يا مولاي، لا تفعل ذلك ونظرت إليه طويلاً قبل أن تقول: "أنت تعرف قيمة الحياة." لم تكن تنصحه، بل ترجوه. في عينيها كان رجاء شخصيّ لا علاقة له بالشعب ولا بالسياسة.

لحظة قصيرة لكنها كشفت المسافة بين ملكٍ يخاف من الله وامرأةٍ تخاف عليه.

ضحك خريس ضحكة مُرة وقال:

–لا يجلس على هذا الكرسي من يقدّر ثمن الحياة.

تململ الوزراء في مقاعدهم، وتبادلوا نظرات سريعة. قال وزير التجارة بخوف:

–لكن يا مولاي، إعدامهم قد يثير الشعب.

رد عليه وزير آخر بسخرية:

–الشعب؟ الشعب سيصفق لأي شيء يقوله الملك، سواء أعدم

أو عفا. طالما كان الاله يقف خلفه ويلهمه ويفهمه كما كان يُفهم سليمان الحكيم.

تدخل مستشار ثالث وقال بصوت خافت:

–ربما الأفضل أن نترك النقابة قائمة... عبرة للتاريخ.

صاح أحمد، الوزير المتشدد:

–بل يجب أن تُغلق، وأن يُعلّق أعضاؤها على المشانق في الميادين. العبرة لا تكون بالكلام، بل بالدماء.

ردت عائشة بحزم:

–وهل الدماء تبني دولة يا أحمد؟

ضحك خريس فجأة وقال:

–أنتم كلكم نسخة من شعبي: متناقضون. هذا يريد الدم، وهذه تريد الرحمة، وذاك يريد أن يُسكت الجميع. أنتم صورة مصغرة من السوق نفسه.

في السوق في تلك اللحظة، كان المشهد صاخبًا.

التجار يتجادلون: بعضهم يقول إن النقابة انتهت، وبعضهم يهمس أن السرقة ستعود سرًا كما كانت قبل أن تُشرّع الدولة لها بابًا.

الشباب يهتفون بكلمات مبهمة عن الحرية، لكن لا أحد يفهم هل يعارضون النقابة أم يعارضون الملك نفسه.

رجل دين صغير يقف على صندوق خشبي يصرخ:

من بقي في النقابة سيُعذَّب في النار، تُقطع يداه وتُطفأ عيناه!

فيضحك شاب في الخلف:

وهل النار تحتاج إلى نقابة يا مولانا؟ النار مفتوحة للجميع!

ضحك الناس بصوت عالٍ، ثم تفرقوا بين ساخرٍ وخائف.

أما الأصدقاء الأربعة، فجلسوا على صخرتهم. نهى ونوح يتحدثان عن بداية جديدة، وجوليا تبتسم بمرارة، وسيد يقول ساخرًا: كل هذه التجربة فقط لنعرف أن السرقة "حرام"؟ كنت أعرف هذا وأنا طفل!

ضحكوا جميعًا رغم الانقسام، وظلوا أربعة... لكن بوجوه مختلفة.

كانوا يتحدثون بصوتٍ خافت. بين الجمل الطويلة لحظات صمت، تتخللها ابتسامات لا معنى لها إلا بينهما. لم يتعاهدوا بشيء، لم يعترفوا بشيء، لكن الهواء حولهما صار أدفأ. الحب حين يولد بعد الخراب لا يحتاج وعودًا، يكفي أنه بقي.

جوليا وسيد يجلسان صامتين.

لم يعد بينهما اتهام، فقط نظرة طويلة تشبه سلام الوداع. في وجهه شجاعة رجلٍ قرر أن يتركها حرّة، وفي وجهها ندم امرأةٍ عرفت متأخرًا أن القرب أحيانًا أرحم من الكبرياء.

وعند أبواب المعبد، كان الكهنة يوزعون البخور، وصوت الأجراس الصغيرة يتعالى. خرج الكاهن الأكبر ليعلن أمام الناس:

–بأمر الإله العظيم، كل من بقي في النقابة سينقص في الآخرة: تُسلب يده أو عينه أو لسانه. فليختر كل واحد مصيره!

صرخ الناس بالتكبير والبكاء، بعضهم خرّ ساجدًا، وبعضهم هرب من السوق وكأنه مطارد.

وفي القصر، رفع خريس صوته أمام وزرائه ومستشاريه:

–أيها السادة، لقد

انتهت الحكاية.

ابتسم وهو يمد يديه كمن يوزع الاعترافات:

جربنا الجوع، فجعل من شعبي لصوصًا.

جربنا النقابة، فحوّلنا السرقة إلى قانون.

جربنا الوجهاء، فجعلنا العار أقوى من الجوع.

جربنا الكهنة، فجعلنا الآخرة سيفًا مسلطًا على الرقاب.

نظر في عيون وزرائه واحدًا واحدًا، وقال ببطء:

كنني تعلمت أن الحكم لا ينتهي بقرار، وأن المجتمع لا يُطهَّر بمقصلة أو فرمان. الجريمة لا تختفي... إنها فقط تتخفى.

ساد الصمت. لم يجرؤ أحد على الكلام.

أكمل خريس بصوت فيه سخرية وحزن:

–ربما نُنهي اليوم نقابة الحرامية... لكن من المؤكد أننا لن نقض على السرقة للأبد ومن يضمن قد نخلق أو يخلق من يأتي بعدنا نقابة أخرى، أعضاؤهم يرتدون عباءات فاخرة، أو عمائم مقدسة، أو حتى يجلسوا حول هذا العرش؟

تجمّد الجميع في أماكنهم. لم يعرفوا أن كان يضحك عليهم أم يعترف بالحقيقة.

تذكّر سارة من جديد، لا كوزيرة، بل كإنسانةٍ كانت تقول الحقيقة حتى حين تجرحه. مدّ يده إلى الفراغ أمامه كأنه يلمس ظلّها، ثم تراجع مبتسمًا: "الحكم مدرسة قاسية، وسارة كانت الدرس الأخير

ابتسم خريس ابتسامة غامضة وقال:

النهاية لن تكون بإغلاق نقابة... النهاية أن نفهم أن الحرامي قد يكون وزيرًا أو كاهنًا أو حتى ملكًا.

وفي الخارج، في الأسواق والمعبد، ظل صدى كلماته يتردد.

الشعب يتوزع بين خائف وساخر، بين متدين ومتمرد، بين من يصفق للملك ومن يلعنه في سره.

أما النقابة، التي هجرها أهلها، بقيت ظلالها في العيون والقلوب.

وكان السؤال يتطاير في الهواء :

<u>هل انتهت السرقة حقًا... أم أنها فقط غيّرت ثوبها؟</u>

الفصل الأخير

لأ ياجدو متنامش والنبي قولي والنبي والنبي

– الملك خريس عمل إيه في الآخر؟

قتل الناس اللي فضلوا في النقابة؟

أعدم صديقه سيد؟

والكاهن عمل فضحه قال للناس أنه هو اللي قاله يقول موضوع العالم الأخر.؟

الجد (يضحك وهو يهز راسه):

محدش عارف ايه اللي حصل بعد كدة يا حبيبي. ناس قالت إن خريس أصلا ظالم، وأنه كان مخطط لكل حاجه من الأول وكان عامل حسابه يعدم أخر مجموعة تتبقي عشان يخوف الناس ... وفعلاً مصير سيد كان على المقصلة، وبعدها السرقة رجعت بس في السر.

وناس تانية قالت: لأ، ما قتلش حد... شاف إن اللي فضلوا في النقابة محتاجين علاج وتعليم، وحاول يساعدهم.

الطفل (متعجب):

–طب والسرقة كده رجعت ولا لأ؟

الجد:

–يا ابني، السرقة ما بتموتش. الجريمة مش مرض ندوّر له على دواء... الجريمة عرض. بتظهر مع الجوع، مع الظلم، مع الجهل.

–السرقة يا صغيري زي ظلّك... ممكن تختفي تحت ضوء قوي، لكن ما تقدرش تلغيها. الجريمة مش مرض نعالجه، دي عَرَض. تظهر لما يجوع الناس، أو يظلمهم الحاكم، أو يسيطر الجهل.

–يعني خريس كان بطل ياجدو؟

الجد (ساخر):

–بطل إيه يا حبيبي! ده عمل شغلته.

الحاكم دوره يأمّن للناس الأكل والعلم والعدل. دي مش منّة. ولو خريس نجح مرة، بس ما تنساش إنه ديكتاتور... والديكتاتور، حتى لو صاب مرة، بيخيب ألف مرة.

–طب يعني إيه اللي حصل بجد؟

الجد (يربت على كتفه ويضحك):

–مفيش حد عارف. يمكن اتعدموا، يمكن عاشوا وماتوا جوة النقابة، يمكن سرقوا تاني. كل واحد بيحكي حكايته هو مش حكاية النقابة...

اللي نعرفه بس إن السلطة المطلقة... مفسدة.

الطفل (متذمر وهو يغطي نفسه):

–يعني أنا قعدت أسمع القصة كلها... ومفيش نهاية؟!

الجد (ينفجر بالضحك)

أيوه يا حبيبي... هي دي النهاية مفيش نهاية

مكملة، حتى لو احنا مش #مكملين

مرحبًا بك في نقابةٍ تمنحك رقم عضوية لتسرق باطمئنان، وتجعلك تعيش في مدينةٍ صار فيها اللصوص وجهاء، والكهنة تجارًا، والعدل مقصلة بيد حاكم لا يرحم. لكنك ستخرج من الحكاية لتسأل نفسك: من الحرامي الحقيقي؟"

عن الكاتب

محمد صبحي كاتب وسياسي مصري، ومحامٍ حقوقي عمل لسنوات في الدفاع عن الحريات العامة والحقوق الأساسية. شارك في مبادرات وأبحاث متصلة بالعدالة الجنائية، وركز في مسيرته على قضايا الإنسان في مواجهة السلطة، مؤمنًا بأن قيمة الحياة والكرامة هي الأساس لأي نظام عادل. يرى أن الكتابة فعل مقاومة، وأن التوثيق شهادة لا غنى عنها في زمن الانهيار والتلاعب بالحقائق.